الظرفاء

محمود السعدني

الظرفاء

تأليف
محمود السعدني

هنـــداوي

الظرفاء

محمود السعدني

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٣ ٣٤٤٠ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٦٧.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لأسرة السيد الأستاذ محمود السعدني.

المحتويات

تقديم	٧
من جُحا إلى الشناوي	١١
أعظم الظرفاء	١٥
الباسم العبوس	٢٣
سيد الظرفاء	٣١
السيد ... العبد	٣٧
عبد الحميد الديب	٤١
الأعمى المُبصر ... ناجي	٤٧
ربُّ المقالب ... حفني	٥٣
المازني ... ثالث الفرسان	٦١
كوكتيل ... من التاريخ	٦٧
النكتة للنكتة!	٧٥
لعنة الظروف!	٨١
أتعس الظرفاء	٨٩
الثائر الساخر	٩٥
الحياة في إنسان	١٠٥
ليس بعد الضحك ذنبٌ!	١١٣

تقديم

رأى الأستاذ محمود السَّعدني أن يسمي كتابَه هذا «الظُّرفاء» ورأى — ولا أدري لماذا؟ أن أكون واحدًا من هؤلاء الظُّرفاء ... ثم رأى أن أُساهم في الكتابة بكلمةٍ!

وأُبادر فأؤكد للقُرَّاء أنَّ الصورة التي رسمها لي صديقي السعدني لا تُمثل من حقيقتي إلا اسمي ... لو كنت أحد الظرفاء الذين خصَّهم بعنايته لرضيت بما نسبه إليَّ من مزايا تافهة ... وعيوبٍ جميلة ... وأشياءَ أخرى غريبةٍ تثير السُّخرية والابتسام!

وكتاب السَّعدني، بعد ذلك، متحفٌ أنيقٌ يضم آثار بعض من الشَّخصيَّات المصرية الموهوبة، وقد تناول المؤلف هذه الشخصيات بالدراسة المرحة، والتحليل الضاحك، وأضفى على حياتها ظلالًا كثيرة من خياله السَّخي!

وللسعدني خيالٌ طاغٍ قويٌّ، غير أن هذا الخيال على طغيانه وقوته لا يقهر الحقائق دائمًا ... فكثيرًا ما خضع لها، وهو في حديثه عن بعض ظرفاء مصر، لا يمشي وراء الحقيقة المجردة، ولا يمشي أمامها، ولكن يسير معها، يصادقها أحيانًا، ثم يخاصمها كما يخاصم الصديقُ صديقَه!

والشخصيات التي عرضها السعدني في مُتحفه تُمثِّل الطبيعة المصرية، بذكائها ومكرها وسخريتها، تمثل حضور البديهة، ودقة الملاحظة، وخفة الروح.

وقد كانت النكتة السلاح السِّري الفتَّاك الذي استخدمه المصريون في محاربة الغُزاة والمحتلين، كانت النكتة هي الفدائي الجسور الذي استطاع أن يتسلل إلى قصور الحكام، وحصون الطغاة، فأقضَّ مضاجعهم، وملأ صدورهم بالرعب والقلق.

والنكتة المصرية القوية تعتمد على المبالغة في تصوير حقيقة، أو تشويه حقيقة.

- كان زِيوَر باشا رئيسًا للوزارة وكان ضخم الجثة، فوصفه عبد العزيز البشري بأنه إذا ركب العربة لم يستطع أحد أن يعرف هل هو جالسٌ إلى الشمال أو هو جالس إلى اليمين! وأنه كان يمشي في حديقة داره فتراهن اثنان من المارة هل هو يسير أمامهما أو هو مُتجه إليهما!
- وكان مأمون الشناوي يتكلم عن سرعة تضخُّم حمادة الطرابلسي واطراد الزيادة في وزنه فقال إنه كان يجلس معه فرآه وهو «بيتخن»!
- وكان حفني محمود وزيرًا للمواصلات، فسمع صوتًا عاليًا يرتفع من الغرفة المجاورة لغرفته فاستدعى الساعي وسأله: ايه الزيطة دي؟ فقال له الساعي إن السكرتير يتكلم من الإسكندرية، فقال حفني محمود: قُل له بدل ما يزعق كده ... يتكلم في التليفون!
- وكان حافظ إبراهيم جالسًا في حديقة داره بحلوان، ودخل عليه عبد العزيز البشري وبادره قائلًا: لقد رأيتك من بعيد فتصورتك واحدة سِت ... فقال حافظ إبراهيم: والله يظهر إن نظرنا ضعف، أنا كمان شُفتك وأنت جاي افتكرتك راجل!
- وكان البشري وحافظ إبراهيم مدعُوَّين إلى إحدى الرحلات، ودخل البشري على حافظ في غرفة النوم وطلب إليه أن يرتدي ملابسه، فقال حافظ: أنا لسة مغسلتش وشِّي، فقال له البشري: وشك موش عاوز غسيل ... نفَّضه كفاية!
- وتعَوَّد عبد العزيز البشري أن يستخدم صِيَغًا مختلفة في القَسَم بالله، فكان يقول مثلًا: أُقسم بالله ثلاثًا ... وحقِّ ذات الله العليَّة ... قسمًا بذات العزَّة والجلال ... وكان إذا استعمل أحد هذه الأقسام في أول الليل ظلَّ يستعمله إلى أخر الليل.

  وفي إحدى الليالي لاحظ حافظ أن عبد العزيز البِشري استعمل كل صِيغ الأقسام ... فسأله: إيه الحكاية؟ هوه مفيش «يمين» نوبتشي الليلة!

  وبين الشخصيات التي لمعت في مجال النكتة، ولم تكن لها صفة سياسية أو فكرية، المعلم دبشة الجزار، والأُسطى حسين الترزي.
- كان حسين يسير في الطريق على قدميه، فلمحه أحد أصدقائه وكان يسوق عربته الخاصة، ودعا حسين إلى الركوب معه ليوصله إلى المكان الذي يريده، وكانت العربة قديمةً، فقال له حسين: ما أقدرش. علشان مستعجل!

وزار دبشة إحدى الفنانات في دارها فوجد عندها رُمَّانًا، وأبدى إعجابه بالرمان، فقالت له: أفرط لك رُمان يا دبشة؟ فقال لها: فرَّطي لي ... في عرضك!

- وقابل سليمان نجيب إحدى السيدات في ميدان سِباق الخيل، فسألها عن اسم الحصان الذي لعبت عليه، فقالت له: إذا قلت لك اسم الحصان فهل تُشاركني عليه؟ فقال لها سليمان: أنا موش عاوز أشاركِك ... أنا عاوز أشارك جُوزِك!

في هذا الكتاب أكثر من طراز للنكتة، وبعض هذه النُّكت يعتمد على المفارقات، وبعضها يعتمد على المبالغة، وبينها نُكت تعتمد على الجِناس والتَّورية واللعب بالألفاظ، وهي كلها تعطي صورةً صادقةً عن النكتة المصرية.

بين الشخصيات التي تعرَّض لها الكتاب شخصيات تُجيد النُّكتة إلقاءً ولا تُجيدها كتابةً ... مثل محمد البابلي، ومحجوب ثابت، وحافظ إبراهيم، وعبد العزيز البشري.

كان البابلي مُفكرًا على درجة عالية من الثقافة ... وكان يجمع بين ترف الحياة وترف الذهن ... وكان يتحدث بأسلوبٍ لاذع أنيق، ولكنَّه لم يحاول أن يُسجل هذا الأسلوب على الورق.

وكان محجوب ثابت يجنح في كتابته إلى تصنُّع الجَد، ويستخدم في مقالاته السياسية شعارات حماسية وطنية، وكان حريصًا على أن يبدو من خلال ما يكتبه مُتجَهِّم الوجه، مُقطب الجبين!

وكان حافظ يبلغ القمة في التعبير عن النكتة إذا ألقاها، أو عبَّر عنها بالشِّعر الخفيف، وكم له في هذا المضمار من أشعار لم يتضمَّنها ديوانه المطبوع، ولكن طريقته المعقدة في الكتابة كانت تخنق روح النكتة.

وكذلك كان عبد العزيز البشري ... فإن أسلوبه الكتابي يعتمد على جزالة اللفظ، وهذا الأسلوب يحجب الجمال الذي امتاز به أسلوب البشري عندما يطلق النكتة، أو يحكي حكايةً.

وكان المازني يجيد السخرية إذا كتب، ولم يكن يعرف كيف يقول النكتة، ولا كيف يرويها عن غيره.

أمَّا عبد الله النديم وحسين شفيق المصري، فكلاهما كان يُحسن التعبير عن النكتة بالكتابة، والزجل، والكلام، والشِّعر الماجن، والشِّعر الرصين.

لقد كان مفروضًا أن أتعرَّض هنا لدراسة النكتة؛ ما هي؟ وما الفرق بينها وبين الفكاهة، والطُّرفة، والمُلْحة، والدعابة، والسخرية، والقَفشة، والقافية ... وهل تأثرت بحضارة العرب؟ وأي النكت أشد أثرًا؛ النكتة المسموعة، أم النكتة المكتوبة، أم النكتة المرسومة؟

ولكن مثل هذه الدراسة لا يتَّسع لها الحيز المخصص لمقدمة كتابٍ ... ثم يبقى أن ما كتبته ليس مقدمة، ولا تمهيدًا. ولا تعريفًا ... وإنما هو مجرد مساهمة بكلمة صغيرة، في كتابٍ غير صغير!

كامل الشناوي

من جُحا إلى الشناوي

كامل الشناوي

الحقيقة ... أن هؤلاء الرجال كانوا يُضحِكون الناس والعَبَرات تخنقهم، ويُشيعون الأمل واليأس يكاد يقتلهم، ويضحَكون بالشفاه وفي القلوب حسرة. ومات أغلبهم حزينًا مهمومًا بعد أن ترك خلفه ابتسامةً مضيئة ... على كلِّ الشِّفاه.

مَن هم هؤلاء الظرفاء؟ الذين أشاعوا البهجة في نفوس مُعاصِريهم، بل وفي نفوس أبناء الأجيال التي جاءت من بعدهم. وكيف أكتب عنهم؟ ومن أي زاوية أتناول سِيَرهم الحافلة وقصصهم الغريبة العجيبة الحافلة بكلِّ الألوان؟

أبو الظُّرفاء

يقول البعض إن هؤلاء الظرفاء — على مر العصور — منذ أن نسج خيال الناس المكدودين قصة «جُحا أبو الظرفاء» ليتلهَّوا بها وليضحكوا منها وعليها، كانوا مجرد جماعة من المهرِّجين، عاشوا وماتوا، ومروا على أرض البشر دون أن يتركوا خلفهم أثرًا.

ولكن، هل هذا صحيح؟

الواقع يصفع هذا القول على قفاه، فبعضهم — بعض هؤلاء الظرفاء — قاد الجماهير وأشعل نار الثورة، واقتحم تاريخَ البطولة من أوسع أبوابه، ومن هؤلاء مثلًا الزعيم الظريف عبد الله النَّديم.

ويقول البعض الآخر إن هؤلاء الظرفاء كانوا في مجموعهم من دود الأرض الذين سحقتهم الأقدام على الطريق فتعلَّقوا بدنيا الرغَد والثراء والشهرة العريضة، واقتحموا هذه الدنيا العجيبة متطفِّلين، يُضحكون الأغنياء والوجهاء والمشهورين، وأن دورهم في الحياة لم يكن يزيد كثيرًا عن دور «الأُدَباتية» و«القُرَداتية» واللاعبين على الحبال.

ظُرفاء جبابرة

ولكن الواقع يعود فيُكذِّب هذا الزعم أيضًا، فمن بين هؤلاء الظرفاء مَن كان يجمع بين العلم والشهرة، ومن هؤلاء الدكتور محجوب ثابت، ومنهم العملاق في دنيا الأدب، كحافظ إبراهيم والشيخ البشري.

ومنهم مَن تولى منصب الوزارة وينحدر من عائلة عريقة يضرب أصلها الطيب في بطن التاريخ إلى غورٍ سحيق ... وأقصد به المرحوم حفني محمود.

ونظرة خاطفة إلى هذا الصفِّ الطويل من الرجال الظرفاء في العصر الحديث تجعلنا نُهمل ما يقوله عنهم أصحاب العقول والألسنة الجافة. وعلى هذا الأساس ستكون نظرتنا إليهم عندما يأتي دور كل منهم لنؤرخ عنه.

والذي أود أن أذكره الآن للقُراء، أنني بعد بحثٍ طويل في تاريخ هؤلاء الرجال خرجت بحقائق مُشرقة ومريرة معًا!

عبد الله نديم

من هذه الحقائق مثلًا أن زعامة عبد الله النديم قد انصهرت في البداية — بداية حياته — في هذه المهنة التي احترفها طويلًا ... مهنة الظُّرف، فهي المهنة التي قادته إلى المقاهي الحقيرة الصغيرة المنتشرة داخل أزقة أحياء الإسكندرية العتيقة. وجعلته يخالط الحمَّالين والنشَّالين وأصحاب المزاج، الذين يسخرون بكل شيء ومن كل شيء سخريةً مُرَّة مُوجعة، كأنها السِّياط تجلد ظهر المجتمع الذي عاشوا فيه واكتوَوا بأوضاعه المقلوبة ... والشعب المصري يحب النكتة ويطرَب لها، ويستخدمها كسلاح حادٍّ يطعن به، في غير هوادة ولا شفقة، كل الأعداء الذين يحيطون به ويسدون عليه السُّبل نحو الارتقاء.

ولكأن عبد الله النديم كان يعرف، بالحاسة المجهولة التي يتميَّز بها كل زعيمٍ، أنه عن طريق زعامته في النكتة يستطيع أن يتزعم الجماهير ويدفعها دفعًا نحو الثورة ... وقد

استطاع النديم أن يتزعم الشِّلل التي كان يجالسها في المقاهي الحقيرة في صِباه، وكأنها كانت تجربة خطيرة في حياته أهَّلته لتزعُّم الشعب كلِّه في ثورة عرابي.

والذي يقرأ خُطب النديم اليوم، التي كان يلقي بها صباحَ مساء إبان الثورة، يعجب لهذا القدر العجيب الذي جعل الرجل الزعيم يستخدم مواهبه الأولى في الزعامة؛ فتراه لا ينسى النكتة وهو يخطب في الجماهير، وسنعود عند كتابة سيرة النديم الظريف إلى توضيح هذه النقطة بالذات، التي أغفلها المؤرخون جميعًا عندما تعرَّضوا لسيرة هذا الرجل العظيم.

غلطة طه حسين

هذه حقيقةٌ ... وهناك حقيقة أخرى، وهي أن الناس أصدروا أحكامًا غاية في البُعد عن الحقيقة ضد هؤلاء الرجال؛ فوصفوا حافظ إبراهيم بأنه كان يتعمد إضحاك الأثرياء والباشوات ليفيد منهم. وهي غلطة، كما قلت، فظيعة وقع فيها فيما بعدُ أستاذنا الدكتور طه حسين عندما كتب مقالًا عن حافظ قال فيه هذا المعنى منذ شهرٍ. وكأن المفروض أن يكون الأديب متجهم الوجه، يحتل فمه أكليشيه من الاحتقار للناس، فلا يضحك إلا بقدرٍ ولا يطرب إلا بمقدارٍ.

هذه الحقيقة المُرَّة لا تجد لها مثيلًا في بلاد أخرى؛ فلم نسمع بعدُ أن أحدًا في إنجلترا وصَف برنارد شو بأنه مُهرِّج، بل إنهم اتخذوا من تهريجه هذا دليلًا على العبقرية. وكذلك كان الحال مع أوسكار وايلد، الأديب الذي قضى حياته كلَّها وهو يضحك على موائد العشاء والشاي في قصور لندن ... ولم يقل واحد من الإنجليز من معاصريه أو من الذين جاءوا بعده إن أوسكار وايلد كان يتعمد إضحاك الناس ليكتسب منهم، مع أن الثابت في التاريخ أن أوسكار وايلد كان فقيرًا، وأنه اضطر للزواج من إحدى النبيلات الدميمات ليضمن لنفسه عيشًا مستقرًّا. أمَّا الويسكي والحفلات الصاخبة — هكذا يقول تاريخ أوسكار وايلد — فقد كان شيئًا مضمونًا لدى الأصدقاء.

ابتسامات ودموع

والحقيقة المُرة الأخيرة، أن هؤلاء الرجال كانوا يُضحكون الناس والعَبَرات تخنقهم، ويُشيعون الأمل ... واليأس يكاد يقتلهم، ويضحكون بالشقاوة وفي القلوب حسرة. ومات أغلبهم حزينًا مهمومًا ... بعد أن ترك خلفه ابتسامة مضيئة ... على كل الشفاه.

على أية حال، لقد ذهب هؤلاء الظرفاء الكبار بعد أن تركوا خلفهم أثرًا كبيرًا، فبعضهم استطاع أن يُغيِّر تاريخ بلاده، والبعض الآخر استطاع أن يبُث الأمل في نفوس الناس، الأمل بمستقبل باسم مشرقٍ، وغدًا أعظم حالًا من اليوم، وهي مهمة عظيمة لم يقُم بأعظم منها العباقرة الكبار الذين غيَّروا وجه التاريخ.

الظرفاء الأحياء

ولن ننسى ونحن نكتب عن تاريخ الظرفاء الأحياءَ منهم. ولن ننسى أيضًا المرحوم أبو المجد، الشاب الذي مات قبل الأوان، ومات وعلى شفتيه ابتسامةٌ وفي نفسه مأساةٌ.

أعظم الظرفاء

عبد الله النديم

اللهمَّ اكتبني عندك في أمِّ الكتاب إنجليزيًّا، فإن لم يكن يا ذا الْمَنِّ، فاكتبني عندك خواجا، فإن لم يكن يا ذا الإكرام، فاكتبني عندك خديويًّا ... أو باش أغا ... أو أغا!

وجدت نفسي في حيرة شديدة عندما بدأت أكتبُ قصةَ عبد الله النديم ... فقصة الرجل ذائعةٌ ومعروفة، فهو من أحب زعماء الثورة العرابية إلى الناس ... لأنه كان يمثِّل المصري الأصيل، صاحب الروح الخفيفة، والنكتة الحلوة ... ثم إن عبد الله النديم أكثر من شخصية، وأكثر من رجل، حتى حياته نفسها كانت تختلف عن حياة الآخرين.

بداية حزينة

لقد بدأت حياته حزينة ... فتح عينيه على الحياة ووالده النَّجار الفقير يخوض في بحار من الهمِّ ومن الحُزن.

كانت الحالة في مصر سيئةً للغاية ... وحُثالة خواجات أوروبا يعبُرون البحار على بواخر متشردة، ليصبحوا بعد قليلٍ سادةً وأثرياء.

وفتح النديم عينيه على الحياة في المدينة التي هاجر إليها أبوه ... مدينة الإسكندرية، ليرى كل شيء متناقضًا يثير السخرية ويثير الاشمئزاز، خواجات ينعمون بكل شيء، وفقراء يشاركون الدجاج «النَّبش» بحثًا عن الطعام.

والخواجات لا يهدءون لحظة عن النهب وعن السلب، والفقراء يتفرجون على الموكب دون ضجةٍ ... لم تكن هناك مقاومة، فلم تكن في مصر هيئاتٌ، وليس فيها نقاباتٌ.

والمصريون جميعًا يعيشون فُرادى، كلٌّ منهم مشغول بالبحث عن طعامِ يومه.

هكذا كان الحال والنديم طفلٌ صغير يجوب أزقَّة حي كوم الدِّكة بالإسكندرية ... وعندما دفعه أبوه إلى المدرسة لم يجد النديم فيها شيئًا يثيره ... كانت المدرسة في نظره عدة مقاعد صماء، ومدرس عجوز يلقي على التلاميذ بكلمات ميتة، لا روحَ فيها ولا حياة ... فهجرها هي الأخرى غير آسفٍ عليها ليدخل مدرسة أعظم وأرحب وأكثر ضجةً وأكثر حياة ... هي مدرسة الحياة.

بين الأزقَّة والمقاهي

وفي المقاهي الصغيرة المنتشرة داخل أزقَّة أحياء الإسكندرية، وحول الميناء، وجد عبد الله النديم ضالته، حيث يأوي كلَّ مساءٍ عشراتٌ من الحمَّالين والسقَّائين، بل والنشَّالين، يشربون أقداح الشاي، ويُغرقون همومهم في دخان الكيوف ... ثم يقضون ليلهم كلَّه في الضحك والسخرية بجميع عباد الله، وبالأوضاع المقلوبة التي تجعل من بعض الناس سادةً، ومن البعض الآخر عبيدًا لا يجدون ما يأكلون.

وكان النديم يحوم حول هذه المقاهي كالفراشة، يستمع أولَ الأمر إلى ما يقوله هؤلاء الناس المكدودون، ثم يشاركهم السُّخرية بعد ذلك بكل شيء ... السخرية بهم وبالخواجات، وبنفسه إذا لزم الأمر ... فإن اهتزاز الأوضاع في زمانه لم يترك في نفسه أثرًا لاحترام أحد.

أول مراتب الشُّهرة

واشتهر النديم في المقاهي المنتشرة في المدينة وما حولها ... وطار صيته حتى لم تعد هناك نكتة جديدة إلا ويُنسب أمرها للنديم.

ولقد محا الزمن فيما محا نُكت النديم في ذلك العصر الأول من صِباه. ولم يبقَ منها سوى النَّزر اليسير، ولكنَّها تدل دلالةً قاطعة على أن النديم لم يكن محترفَ نكتةٍ لوجه النكتة فقط، بل كان يعني من ورائها أمورًا عظيمة، بل هي، إن شئت الدقة، كانت بداية الثورة في كل الأوضاع المهتزة.

نكتة سياسية

فمثلًا كان الخواجات في ذلك العصر فوق القانون ... لم يكن يجرؤ أحد على سجن الخواجا أو حتى إدانته ... وفي هذا الصدد قال النديم إنَّ خواجا وقف أمام القاضي فسأله: إنت قتلت الرجل ده يا خواجا؟

وردَّ الخواجا: لا يا خبيبي ... هو «كتل روخه»!

وهتف القاضي منشرحًا: براءة.

وجاء دور أحد أبناء البلد، فسأله القاضي: إنت ضربت الراجل ده بالسكين؟

وردَّ ابن البلد في ضراعةٍ: لا والنبي يا سيدي القاضي.

وسأله القاضي من جديدٍ: أُمال يعني هو اللي ضرب نفسه؟

وأجاب ابن البلد: أيْوة يا سيدي.

وعاد القاضي يقول: غريبة ... فيه حد يضرب نفسه ... إنت اسمك أيه؟

ورَدَّ ابن البلد الذَّكي في سرعة: اسمي ... مخمد خسين!

والمعنى واضح طبعًا ومفهوم ... وهو يدلُّك إلى أي مدًى كانت نكتة النديم تحمل مضمونًا عظيمًا، لا يستطيع مقال طويل أن يُظهره بهذه الصورة الرائعة.

عامل تلغراف

المهم أن النديم الذي كان يُلقي بالنكتة صباح مساء كان لا يجِد ما يأكله ... والنكتة لا تُطعم أحدًا، والشِّعر والزجل لا يُغْني من الجوع، فقرر أن يتعلم حِرفة، وأصبح النديم بعد قليل عامل تلغراف.

ثم تشاء الأقدار أن يُعيَّن النديم في سراي والدة باشا عامل تلغراف، وهكذا دخل النديم القصور ... حيث الصمت الكئيب، والعادات المضحكة ... والملابس المزركشة.

ولم يكن النديم على استعداد لأن يَقبل حياته الجديدة ... صحيح أنه ضَمِن العيش المستقرَّ، ولكن مَن قال إن الرجل صاحب الرسالة يَنشد الاستقرار في العيش؟

الأغا ... باشا

كان في القصر رجل اسمه أغا باشا ... كان سيد القصر غير منازعٍ، والويل لَمَن يغضب عليه، والسعادة لَمَن يرضى عنه ... وكان منظر الأغا يدعو إلى الضحك، كان طويلًا وبدينًا

إلى حد الإفراط، وكرشه المستدير يبرز أمامه، كأنه أُلصق بالصدفة في هذا الجسم الضخم ... كأنه جسم فيلٍ ... و«حبكت» النكتة على النديم فأنشد في الرجل زجلًا ظريفًا ... غاية في النكتة والسخرية:

شوف الأغا في النغنغا زي التيران في المزرعة
لو كنت أنا صاحب الأغا كنت اشتريتله بردعة

وسمع الأغا زجل النديم فأمر بطرده من القصر، وأمر أيضًا بأن يُضرب بالقباقيب حتى يُغمي عليه!

وهكذا خرج النديم من القصر والدماء تسيل من رأسه ومن أنفه ... إلى غير رجعةٍ.

الضاحك الباكي

وعاد النديم إلى الحياة الواسعة العريضة يُضحك الناس ويُسلِّيهم ويضمن غذاءه ... ولكنه يُضحكهم على واقعهم البائس المُر ... على أحوالهم المريضة والأوضاع الكسيحة المحيطة بهم، ويشير في جرأة إلى الأعداء الذين يكبلون حرية الناس، ويعوقون تقدُّمهم ... استمع إليه يقول: شاهد خفيرٌ لصًّا يهبط من نافذة ومعه ملابس، ويهتف الخفير في اللص: مين اللي هناك؟

– أنا خواجا.

– لا مؤاخذة ... كنت أحسبك مصراوي.

هكذا كان النديم يهوي بلسانه كالمطارق الضخمة ليحطمَ كل أعداء الشعب، ليقول للناس أفيقوا أيُّها اللاهون عن ركب الحياة.

نُكتة تاجر الخردوات

وعاش النديم تلك الفترة يَنزل ضيفًا على العُمَد والأعيان يأكل عندهم، ويعقد في منازلهم حلقات السَّمر التي تستمرُّ عادةً حتى الصباح ... وهو ينتقل من بلدة إلى أخرى وصيته يسبقه، ونُكَته تطير عبر الحقول إلى القرى والكفور، فيُضحِك الفلاحين على الخواجات وعلى المصريين أيضًا.

ثم يستقر به المقام في المنصورة ... وله مهنة في يده هذه المرة ... تاجر خردوات. ولكن تاجر الخردوات الذي يحب النكتة لا يستطيع أن ينجح في بيع الخردوات، فهو يسخر بالزبائن، ويسخر ببضاعته.

«واحد زبون عاوز يشتري فانلة بياقة.»

«واحد فلاح امبارح طلب مني عِمَّة صيفي.»

«واحد خواجة أسلم ولف شال على البُرنيطة.»

ويُفلس النديم، ويجلس في المساء أمام الدكان الذي أصبح خاويًا، ويشير إلى الجمع الذي يلتف حوله ويقول: تعرفوا، إن أحسن صنف ماشي في الخردوات إيه؟

ويصيح الجمع المحتشد: إيه؟

ويجيب النديم: اللبان.

وكانت عادة عند تجار الخردوات أيام زمان هي توزيع قِطع اللبان مجانًا على الزبائن ... وكان النديم يوزع اللبان على كل مَن يلقاه.

مع الأفغاني

ثم تنشب الثورة ... ولكن قبل نشوبها بزمنٍ قصير مرَّ على أرض مصر رجلٌ كالطيف، قويٌّ كأبطال الأساطير، حادٌّ كالسيف ... اسمه «جمال الدين الأفغاني» وكان عبد الله النديم قد عرف الطريق إليه يستمع في اهتمام إلى ما يقوله هذا الرجل العجيب ... عن الحرية، عن النضال، عن الكفاح، عن احتمال الأذى والموت في سبيل مبادئ عظيمة ... ثم تختطف السلطة المذعورة الرجل العظيم لتُلقيَ به خارج الديار منفيًّا ... ولكنه قد أدَّى الرسالة، ووضع بذور الثورة في قلوب الرجال الذين سيحملونها بعد ذلك، وكان منهم الظريف الأديب، عبد الله النديم.

الثَّورة

ولكن مَن كان يتصور أن الثورة ستجتاح أرض مصر كلها بعد ذلك بأعوام ... وأن المصريين سيهبُّون بالهراوات والعصِي والبنادق القديمة القليلة التي لديهم ليطالبوا بالدستور والبرلمان وبخلع الخديوي الخائن ... ومَن كان يظن كذلك أن هذا الضابط الفلاح الطويل القامة، المهيب المنظر سيهب على رأس فرقته ليُعطي للطغاة درسًا؟ ثم

مَن كان يظن أن هذا الزجَّال الذي لا مهنةَ له، والذي فشل في الوظيفة وفشل في الدراسة، ونجح في النكتة، هذا المصري الأصيل، عبد الله النديم، مَن كان يظن أنه سوف يحمل على عاتقه أخطر وأشرف مهام الثورة، وهي مهمة إثارة الجماهير ودفعها دفعًا نحو الثورة؟!

اللعنة للمتفرج

ولكن هذا هو الذي حدث، فلم تكد الثورة تتحرك، حتى تحرك عبد الله النديم يخطب الناس في حماسٍ ويكتب المقالات ليعلِّمهم:

«أيُّها المصريون، لا حيَّاكم الله ولا نجَّاكم، ما دُمتم تعيشون كالسائمة؛ تأكلون من حشائش الأرض، وتُقبِّلون أياديكم المُشققة ظهرًا وبطنًا.»

«أيها المصريون، شمُّوا رائحة أجسامكم، إنها نتنةٌ قذرة والنيل يجري بينكم، استمعوا إلى صرخات أمعائكم، ووادیكم يملؤه الخير، أنصتوا إلى صوت الله يلعنكم، مع أنكم حفظة كتابه وحملة رسالته.»

«أيها المصريون، لعن الله مَن يكره الحرية، لعن الله مَن تعفُّ نفسه عن أطايب الطعام، لعن الله مَن يكره الراحة، لعن الله مَن يقعد متفرجًا، لعن الله مَن لا يتبعنا.»

وتصيح الجماهير ثائرةً: تحيا الثورة، تحيا الثورة!

إذن ... فهذه هي الثورة ... والجماهير التي رآها النديم في صباه تشرب الشاي وتدخن الحشيش وتضحك من الأعماق، يراها الآن تحمل الفئوس وتطلق البارود وتهتف بحياة الثورة.

في الميدان

وتنشب المعارك التي تمنَّاها النديم طويلًا، ويسقط الكثيرون صرعى، ويراه أحدهم مرة يسير بين جُثث القتلى الإنجليز ... فيسأله: ماذا تفعل عندك يا عبد الله؟

ويرد النديم على الفور: أتأكد من موت هؤلاء الناس، ليطمئن قلبي، فأنا أخشى أن يكون عزرائيل خواجا.

حتى في ساحة القتال، لا ينسى النديم النكتة!

سميحة الشتوي

ويتزوج أحد أصدقائه خلال الثورة بفتاةٍ زنجية من جنوب الوادي ... ويسأل أحد الأصدقاء عن اسم الزوجة، فيقول النديم: أظنُّ اسمها سميحة.

ويستفسر الصديق: سميحة إيه؟

ويردُّ النديم: لازم سميحة «الشتوي».

وأخيرًا، تنتهي الثورة، ويستسلم عرابي وبقية رجال الثورة اضطرارًا ... ولكن أين طويل اللسان، صاحب النكت التي آذت أُذن الخديوي طويلًا، أين هو هذا المخلوق لتنكل به السلطة كيفما تشاء؟

نديم يخلف النديم

كان قد هرب مع خادمة بعد أن تنكَّر في زي أحد المشايخ، وراح يجوب القرى ويعبُر الحقول فيتلقاه الأصدقاء بفرح شديد. أصبح النديم، اليماني، والمغربي، والزعيم الذي هز المنابر والقلوب، يقتحم الأسواق لينشد زجلًا أو يلقي بنكاته ... ويضحك ويقول بعضهم لنفسه: رحم الله النديم، لقد أعاد هذا الرجل ذِكراه.

لم يدرِ أحد وقتئذٍ، أن هذا الشيخ الذي هرِم ويبس، هو عبد الله النديم نفسه.

يفاجئه رجل مرة فيسأله عن اسمه، فيجيب النديم على الفور دون وعي: أنا النديم ... ثم يستدرك على الفور: أنا النديم الأُدَباتي، وأدبي أحسن م الحاتي ... ويظنُّه الرجل مجنونًا فينصرف.

يعود للثورة

ثم يُقبض على النديم بعد أعوام طويلة، ثم يُنفى، ثم يعود، فيجد أن كل شيء قد عاد إلى مكانه؛ الخونة في كراسي الحكم، والوطنيون تدلَّوا من حبال المشانق، وبعضهم تأكله الحسرة في المنفى، فيهبُّ النديم من جديد، وقلمه في يده هذه المرة، ولسانه يسبق قلمه ... وكانت ثورةً جديدة.

ويهبُّ الإنجليز ومن خلفهم الخديوي ليلقوا به خارج مصر، فإنه الرجل الذي بقي من زعماء الثورة العرابية، ولم تستطع الأحداث أن تُسكت لسانه.

ويخرج النديم إلى تركيا، وقد ترك خلفه دعاء على طريقة دعاء نصف شعبان والناس تقرؤه في المقاهي، وحول حلقات الدخان وهم يضحكون: اللهم يا ذا الْمَن، ولا تمني إلا البِشر والإسعاد ... اللهمَّ اكتبني عندك في أُمِّ الكتاب، إنجليزيًّا، وإذا كان عسيرًا عليك يا ذا المَن، فاكتبني عندك خواجا، فإذا لم يكن مقدورًا يا ذا الإكرام، فاكتبني عندك خديويًّا، فإذا لم يكن هذا يسيرًا أيضًا، فاكتبني عندك باشا أغا، أو أغا، اللهمَّ لا تكتبني عندك مصريًّا، ولا فلاحًا، إنك سميع مجيب الدعاء يا رب العالمين.

وفي تركيا مرِض النديم، فقد أجهده النضال الطويل، وعذَّبه المنفى.

وراء نعشه

وتحركت جرثومة السُّل تنهش في صدره، وتنهش في كيانه، ولكنها لم تستطع أن تُسكت لسانه.

ومات النديم في الثامنة والخمسين من عمره، وخرج بعض الرجال الذين كانوا يعرفونه يُشيِّعون جنازته، وسأل رجل كان يمشي في الطريق: مَن الذي في النعش؟

وأجاب شيخ مُهدم عجوز كان يسير في المقدمة ... وعَبرات تنحدر على خديه ... اسمه جمال الدين الأفغاني: إنه عبد الله النديم.

ومطَّ الرجل السائل شفتيه ... ولم يفهم شيئًا.

الباسم العبوس

حافظ إبراهيم

ولكن حافظ، رغم البؤس ورغم الخوف ورغم القلق كان ظريفًا، وكان يضحك من الأعماق، ويسخر من كل شيء حتَّى من وجوده.

قال كاتب القصة العالمي انطون تشيكوف: «مَن لا يرغب ولا يأمل ولا يقلق لا يستطيع أن يُنتج شيئًا عظيمًا.» وكانت أبرز صفات حافظ إبراهيم ... القلق، وأعظم إنتاجه ... حياته! ولقد بدأت حياته القلقة الرائعة في عام ١٨٧٢م، حين وُلد في عوَّامة كان يسكنها أبوه المهندس المشرف على قناطر ديروط.

وكان أبوه إبراهيم أفندي فهمي مصريًّا صميمًا، وأمُّه تركية من عائلة متوسطة، فكان القلق يجري حتى في دمه. ويموت أبوه وهو في الرابعة. فيتعهده محمد أفندي نيازي، خاله. ويُدخله المدرسة الخيرية بالقلعة، ثم المبتديان، ثم الخديويَّة، ثم يهجر حافظ الدراسة، وقد امتلأت نفسه بُغضًا للنظام الذي تفرضه المدارس على طلاب العلم. ويسافر به خاله إلى طنطا. وهو في طنطا لا يعمل شيئًا ولا يكسب شيئًا. إنه يدور النهار كله والليل كله أيضًا مع طالب في الجامع الأحمدي اسمه الشيخ عبد الوهاب النجار، يغشيان المقاهي المتواضعة، وحلقات الذِّكْر، ويقرضان الشِّعر أحيانًا، ولكنه شِعر ساذج بارد كحياتهما الفارغة. ويضيق به خاله، ويعلن له سخطه على الحال التي آل إليها. فيضيق به هو الآخر، ثم لا يلبث أن يهجره، تاركًا له ورقة صغيرة تحوي بيتينِ من الشِّعر:

ثُقُلَتْ عليك مَئُونَتي إني أراها واهية
فافرح فإنِّي ذاهبٌ متوجهٌ في داهية

شِعر فيه سذاجة، ولكن فيه مرارة، وهي أبدًا طابع شِعر حافظ إبراهيم.

روب المحاماة

أصبح حافظ إبراهيم بلا عملٍ ولا مأوى. وهو أحيانًا يتضور جوعًا فلا يجد ما يأكله، ويتمنى أحيانًا أن يموت.

عجبتُ لعُمري كيف مُد فطالا وما أثَّرت فيه الهموم زوالا
فلَلموتُ خيرٌ من حياةٍ أُرى بها ذليلًا، وكنتُ السيدَ المفضالا

ولكن هل يفقد الحيلة؟ إن مهنة المحاماة مفتوحة الأبواب للهاربين من المِهَن، والفاشلين في الحياة. وهو فاشل وهارب معًا، وأيضًا طويل اللسان. ولم يلبث أن أصبح محاميًا، ولكن المحاماة تحتاج إلى صبر، وهو قَلِق، وتحتاج إلى بحثٍ، وهو يمقت البحث، وتحتاج أخيرًا إلى نظام، فيتركها غير آسفٍ عليها، ماذا بقي إذن أمامه؟ لا سبيل إلا الكلية الحربية.

ولا يدري أحدٌ السبب الذي دفعه إلى ارتياد هذا الطريق. وأغلب الظن أن تأثُّره بقصة حياة محمود سامي البارودي هو الذي دفعه إليه، المهم أن حافظًا دخل الكلية الحربية وأصبح ضابطًا، وعَمِل فترة في الجيش ثم في البوليس، ثم سافر بعد ذلك إلى السودان في الحملة التي كانت بقيادة كتشنر. والشاعر الرقيق الإحساس أصبح الآن محاربًا وفي يده سيف. وهو يكره الحرب، خصوصًا إذا كانت الحرب داخل أدغال موحشة، وصحراوات مجهولة الحدود. ويبكي حافظ في السودان ... يبكي شِعرًا فيقول:

وما أعذَرْتُ حتى كان نَعْلي دمًا، ووِسادتي وجه التُّرابِ
وحتى صيَّرتني الشمسُ عبدًا صبيغًا بعدما دَمغت إهابي
وحتى قلَّم الإملاقُ ظُفري وحتى حطَّم المِقدارُ نابي
متى أنا بالغٌ يا مِصر أرضًا أشُمُّ بِتُربها ريحَ الملابِ

ثم جاءه الفرج بعد ذلك؛ فقد تمردت فرقة من الجيش وحوكم ضباطها وأُحيلوا على الاستيداع ... وكان عددهم ثمانية عشر ضابطًا، وكان من بينهم حافظ.

زواجه

وعاد حافظ إلى مصر يبحث عن عملٍ؛ عرض نفسه على جريدة الأهرام ولكنه لم يُوفق. وكانت شهرته قد امتدت إلى مختلف الأوساط، وأصبح يغشى مجالس الشيخ محمد عبده، وغيرها من مجالس العظماء. وكان له من جزالة الصوت، وحُسن الإلقاء، وجيد الشِّعر، والنكتة؛ ما أفسح له مكانًا في الندوات. وفي هذه الفترة تزوَّج حافظ إبراهيم، ولكن زواجه لم يدُم طويلًا؛ إذ هجر بيت الزوجية بعد أربعة أشهر، ثم لم يعُد إليه بعد ذلك حتى نهاية حياته التي امتدت ستين عامًا.

البكَويَّة

وفي خلال هذه الأعوام الستين وقعت لحافظ أحداثٌ عجيبة ... أُنعِم عليه برتبة البكوية، ثم بنيشان النيل، وعُيِّن بدار الكتب المصرية، فلزم الصمت وآثر السلامة ... ولم ينتج شِعرًا يُذكر خلال تلك المدة الطويلة، وكان السبب في ذلك خوفه من ضياع الوظيفة. ولما جاء صدقي إلى الحكم هاجمه حافظ بشدة، ولكنه لم ينشر الشِّعر الذي قاله فيه، ولكن هذا كله لم يمنعه من أن يكون شاعر الوطنية غير منازع.

اشترك في الأحداث التي هزت بلاده بقلمه، وكان من خير شِعره ما قاله في حادث دنشواي، وفي رثاء مصطفى كامل وسعد زغلول. وكان ينتهز الفرص ليصرخ في وجوه المصريين أن أفيقوا، وأن هُبوا. وكان يبدو متشائمًا أحيانًا، ولكنه لم يفقد الأمل في شعبه. كان واثقًا من النصر في النهاية. وهو عندما تمتلئ نفسه يأسًا يقول:

فما أنتِ يا مِصرُ دار الأديب ... ولا أنتِ بالبلدِ الطيبِ
وكم ذا بمصرَ من المُضحكات ... كما قال فيها أبو الطيبِ
أمورٌ تمرُّ وعيشٌ يمُر ... ونحن مِنَ اللَّهو في مَلعب
وشعب يفرُّ من الصالحات ... فرار السَّلِيم من الأجرَب

ولكن هذا اليائس المتشائم يعود فيقول لسعد زغلول:

فاوِضْ فخلفَك أُمةٌ قد أقسَمَت ألا تنامَ وفي البلاد دخيلُ
عُزْلٌ ولكنْ في البلادِ ضَرَاغِمٌ لا الجيشُ يُفزِعُها ولا الأُسطُولُ

ثم هو يرى البعث بنفسه. لقد هَبَّت الجموع النائمة تبحث عن تاريخها، وهي تحث الخطى في إصرار نحو الفوز، ويُهلل حافظ فرحًا مزهوًّا:

أَفَقْنَا بعد نومٍ فوق نومٍ على نومٍ كأصحاب الرَّقيمِ

شاعر الظرفاء

ولكن حافظ، رغم البؤس ورغم الخوف ورغم القلق، كان ظريفًا، وكان يضحك من الأعماق ويسخر من كل شيء، حتى من وجوده. كان يقول إن الحياة مِحنة، وأن من الواجب أن نستعين عليها بالابتسام. وحافظ لم يكن يبتسم فقط، لقد كان يُقَهْقِه، ويُحرك نفوس الناس ليضحكوا هم الآخرون.

بدمه

حدث مرة أن أديبًا شابًّا كثير الكلام كان يغشى مجالس حافظ، وكان يتحدث دائمًا عن مغامراته في عالَم الضرب والطعن، وكيف أنه قتل فلانًا وجرح فلانًا. وذات ليلة جلس الأديب الشاب يقصُّ على حافظ قصة خلافِه مع جماعة من الأدباء، وكيف أنه أقسم أن يضرجَهم بالدم وسأله أحد الحاضرين: ونفذت وعدك؟

وأجاب حافظ على الفور: طبعًا، وضرجهم بدمه.

يبقى أبسطنا

وكان يحضر حفلة موسيقية، وكان العزف رديئًا والآلات عتيقة بالية. وطلب حافظ من قائد الفرقة أن يُسمعهم لحنًا معينًا، فأجاب المايسترو، بأن اللحن الذي يعنيه سبق لهم عزفه منذ دقائق، وصاح حافظ على الفور: يا سلام، على كده يبقى انبسطنا.

أنا إنجليزي

وخلال الحملة السودانية التي كانت بقيادة كتشنر، حدث أن عاد حافظ إلى المعسكر متأخرًا، وصاح الحارس الإنجليزي الذي كان يقف عند الباب: مَن هناك؟ وكرَّر النداء أكثر من مرة، وارتبك حافظ ولم يدرِ ماذا يفعل. ثم عاد فصاح مُجيبًا: أنا إنجليزي يا جورج.

وما لي جزمة

وكتب مرة إلى جارٍ له يوم زفافه:

أحامِدُ كيف تنساني وبيني ... وبينك يا أخي صِلةُ الِجوارِ
أيشبعُ مصطفى الخولي وأُمسي ... أعالجُ جوعتي في كسرِ داري
وبيتي فارغٌ لا شيء فيه ... سواي، وإنني في البيت عاري
وما لي جزمةٌ سوداءُ حتى ... أوافيكم على قُرب المزارِ
فإن لم تبعثَنَّ إليَّ حالًا ... بمائدة على متنِ البُخارِ
تُغطِّيها من الحلوى صُنوفٌ ... ومن حَمَلٍ تَتَبَّل بالبُهارِ
فإني شاعرٌ يُخشَى لِساني ... وسوف أُريك عاقبةَ احتِقاري

نكد الدنيا

وكان يكره شاعرًا من شعراء عصره كراهية شديدة، وكان هذا الشاعر يتولَّى منصبًا هامًّا، وكان حافظ يبدو دائمًا محتاجًا إليه؛ ولذلك كان يُبدي له الود، وإن كان يبغضه في حقيقة نفسه. سأله الشاعر مرة عن أعظم الشعراء في رأيه فأجاب حافظ: المتنبي، فسأله: وأعظم ما قاله، فأجاب:

ومن نكد الدنيا على الحُر أن يَرى ... عدوًّا له ما مِن صداقته بُدُّ

ولم يفهم الشاعر طبعًا ما يقصده حافظ إبراهيم.

حافظ مات

وكان حافظ يجلس في مكتبه بدار الكتب حين دخل الساعي ومعه ورقة تحمل اسم زائر ثقيل. وقال حافظ للساعي: أنا مش هنا.

ومضت فترة ثم غافل الزائر الساعي ودخل على حافظ مُهرولًا وقد بسط يده بالسلام: صباح الخير يا حافظ بك.

– حافظ بك مش هنا.

وارتبك الزائر ووقف برهة لا يدري ماذا يفعل. وعاد حافظ يقول: يا أخي حافظ مات، حافظ راح في داهية ... هوه مالكوش شُغلة غير حافظ، دنا بادور عليه بقالي عشر سنين أقعد معاه لوحدي مش عارف.

بوليس

روى له أحد أصحاب الصحف كيف أنه خرج من منزله صبيحة صدور صحيفته ليقف بنفسه على حالة التوزيع، وأخذ يروي كيف أنه ركب الترام فوجد كل راكب يحمل صحيفة مع التذكرة. وقال واحد من المنافقين: وأنا كمان والله النهاردة ركبت التُّرُماي لقيت كل راكب معاه نسخة ما عدا راكب واحد.

وأجاب حافظ على الفور: ده لازم بوليس.

ولكن الغريب في الأمر أن خفة دم حافظ ونكتته الشائقة لم يبدُ لها أثرًا في شِعره؛ إذ كان هو في قرارة نفسه حزينًا مكلومًا، يشعر بالوحدة ويحس بالحرمان. ولذلك جاء شِعره كله باكيًا مريرًا، وأجاد في الرثاء وفي الوطنية، استمع إليه يقول بعد مرض طويل:

مَرِضنا فما عادَنا عائدُ ولا قيل أين الفتى الألمعي
ولا هش طرس إلى كاتب ولا خفَّ لفظٌ على مسمعي
سكتنا فعزَّ علينا السكوت وهان الكلام على المُدَّعي

الصيد الحرام

ولكن حافظًا المغمِض العينين على حزنه الدفين، كان ينتفض أحيانًا فيبدو ساخطًا على كل ما حوله من ظروف بغيضة. ساخطًا على الفقر، ساخطًا على الذُّل، بَرِمًا بالظلم الذي لا يدري مداه.

عَزَّت السلعة الذليلةُ حتى بات مسحُ الحِذاء خَطْبًا جُسامَا
وغدا القوتُ في يد الناس كالْيَا قوتِ حتى نوى الفقيرُ الصِّياما
ويَخالُ الرغيفَ في البُعد بَدرًا ويظُن اللحوم صيدًا حرامًا

ثم هو يرى أبناء مصر يسقطون على الطريق، والصعاليك الذين يفدون إليها من بقاع الأرض يمرحون كالآلهة، فيقول حافظ:

بَنُو مِصر في حمى النيل صَرْعَى يَرقُبون القضاءَ عامًا فعامًا
أيها النيل كيف نُمسي عِطاشًا في بلاد رَويت فيها الأناما
يرِدُ الواغِلُ الغريبُ فيَروَى وبنوك الكِرام تشكو الأواما
قد شَقِينا ونحن كَرَّمَنا اللهُ بعصرٍ يُكرِّمُ الأنعاما

رجل سلام

وهو أيضًا رجل سلام يكره الحرب، ويكره الطغاة، ويحب السلام. وفي عام ١٩٠٤م، قبل أن يرتفع صوت واحد يدعو للسلام، يهتف حافظ إبراهيم فيقول:

أساحةٌ للحرب أم محشرُ ومورِدُ الموت أم الكوثرُ
وهذه جُندٌ أطاعوا هَوى أربابِهم أم نَعَمٌ تُنحَرُ
أشَبعتِ يا حربُ ذئابَ الفَلا وغصَّت العِقبانُ والأنسُرُ

ثم يقول:

فهل دَرى القيصرُ في قَصرِه ما تُعلِن الحربُ وما تُضمِرُ؟

مُنصف الموتى

وعندما وافاه أجله، جاءت منيته فجأةً، كان يتعشَّى مع بعض أصدقائه وهو أشدُّ ما يكون مرَحًا وبهجة، ثم شَعر بألم شديد في أمعائه، وعندما حضر إليه الطبيب كان حافظ قد مات، وماتت بموته المنافسة التقليدية التي كانت قائمة بينه وبين شوقي، فقال شوقي العملاق يرثيه:

قد كنتُ أوثِرُ أن تقول رِثائي يا مُنصِفَ الموتى من الأحياءِ

وهكذا انتهت صفحة حافظ إبراهيم، الذي أنصف الموتى وأنصف الأحياء.

سيد الظرفاء

عبد العزيز البشري

لم يكن البشري مجرد ساخر من الناس والحياة، بل كان فنانًا عميق النظرة، رقيق الإحساس، وله بحوث قيِّمة في الغِناء والقراءات والشِّعر والأدب، وعاش حياة حافلة.

مَن هذا المعمم الضئيل الذي يوزِّع وقته بين بار اللواء، ومجالس الأدب، والكتابة في الصحف بأسلوب ضاحك غريب، يقطر فلسفة وعمقًا وفهمًا أصيلًا لطبائع البشر ودخائل الناس؟

إنه الشيخ عبد العزيز البشري، أحد الذين صنعوا تاريخ الأدب الرفيع في مصر ... وواحد من أفرد «الشِّلة» العظيمة النابغة التي نفحها القدر لمصر في فترة من أعظم فترات تاريخها الحديث؛ شوقي وحافظ إبراهيم ومحجوب ثابت، ولكن عبد العزيز يمتاز عنهم بأنه معمم، وسخريته لاذعة تُدمي ولا تجرح، وبديهته حاضرة، ولسانه كسيفِ الله المسلول، حتى على نفسه.

يقابله رجل في الطريق فيطلب منه أن يقرأ خطابًا. وكان الخط رديئًا إلى درجة لم تُمكِّنْه من القراءة فاعتذر للرجل، وظن الرجل أن الاعتذار لجهل الشيخ، فصرخ في وجهه متعجبًا: أُمال لابس عِمة ليه؟

ونزع البشري عمامته من فوق رأسه وألبسها للرجل وصاح فيه: طيب لما الحكاية حكاية عِمة، اقرأ أنت الجواب بقى!

ويستيقظ من نومه ظُهرًا على صوت موسيقى منبعثة من بيانو متنقِّل وأصوات مزعجة لجماعة البلياتشو، الذين كانوا ينتشرون في مصر في تلك الأيام، ويلبس أفرادهم الجِبَّة والكاكولا، ويدهنون وجوههم بالزفت والدقيق، ويضعون على رءوسهم عمائم، وفتح الشيخ البشري النافذة وطلب من جماعة البلياتشو أن ينصرفوا ليتمكن من النوم، ولكنهم لم يفعلوا. فطلب منهم بالحُسنى أن ينصرفوا مرة أخرى، ولكنهم لم يعملوا بنصيحة الشيخ. ووقف الشيخ البشري في النافذة يصيح بأعلى صوته: أنت راح تمشي يا جدع وإلا أنزل أضربك قلمين ... ثم يستطرد: ولا أنزل أضربك قلمين، الناس تقول ده معاهم.

الأبونيه!

وكان يجلس مع «الشِلة» رجل كلما جاء دور الحساب في بار اللواء يصر على أن يدفع، ثم يخرج من جيبه ورقة من فئة الخمسين جنيهًا. وبالطبع كان الجرسون يعتذر فيدفع آخر من أفراد الشلة، وتكررت هذه القصة أكثر من مرة. وفي مرة هَمَّ الرجل بدفع الحساب بعد أن أقسم أكثر من مرة، ثم أخرج نفس الورقة المالية الكبيرة، وعلق البشري على الفور: إنت برضه طلَّعت الأبونيه؟

وكان الشيخ البشري في مأدبة عند الأباظية، وخرج ليغسل يديه بعد الغداء وترك جِبته السوداء معلقة على مقعد في الحجرة، وعندما عاد وجد أحدهم رسم وجهًا لحمار بالطباشير على الجبة فقال الشيخ متسائلًا: مين فيكم اللي مسح وشه في الجبة؟!

وشوهد حزينًا ذات يوم، فسأله حافظ إبراهيم عن سبب حزنه، فروى البشري القصة؛ قال: جاءني اليوم رجل من الريف يرغب ويُلِح في نشر اسمه بالجريدة. وسألته: هل أنت عمدة؟ فأجاب بالنفي. هل كنت ضمن زُوَّار رئيس الوزراء؟ قال لا. هل مات قريب لك فننشر اسمك في النعي، أجاب لا. قلت له اسمع اذهب فارمِ بنفسك تحت الترام وعندئذٍ سننشر اسمك.

وسأله حافظ: وماذا يحزنكَ في الموضوع؟

وأجاب البشري: يبدو أن الرجل أطاعني؛ فقد خرج ولم يعُد.

ويرى حافظ شابًّا وسيمًا فيهتف قائلًا: الله أكبر، هكذا أبناء الأمهات اللاتي تُدفع المهور الغالية لهن.

ويُعقب البشري على الفور: على كده الست والدتك دفعت «دوطة» للمرحوم والدك.

زِيور كله

وقلمه كان أكثر مرارة من لسانه. كتب عن زيور باشا ذات مرة يقول:

«فإذا اطَّلعت عليه أدركت أنه مؤلَّف من عدة مخلوقات لا تدري كيف اتصلت ولا كيف تَعلق بعضها ببعض، وإنك لترى بينها الثابت وبينها المختلج، ومنها ما يدور حول غيره.»

ثم يقول:

«وأهل مصر يأخذون على زيور «كله» ما لا يحصى من الجرائم على القضية الوطنية. وإنهم ليعدون عليه بأموال الدولة واستهتاره بمصالحها، ولكن من الظلم أن يؤخَذ البريء بجريرة الآثم، وأن يُعاقَب المظلوم بجريمة الظالم. فقد يكون الذي اقترف كل هذه الآثام هو كُوع زيور الأيسر، أو القسم الأسفل من «لُغْدِه»، أو المنطقة الوسطى من فخذه اليمنى.»

«إن الحق والعدل ليقضيان بتأليف لجنة تقوم بعمل تحقيق مع صاحب الدولة، فتسأل أعضاءه عضوًا عضوًا، وتُحقق مع أشلائه شِلوًا شِلوًا ... ولعل العضو الوحيد المقطوع ببراءته من كل ما ارتكب من الآثام هو مخ زيور، فما أحسبه شارك ولا دخل في شيء من كل ما حصل.»

مصابيح الدُّجى

ثم يغمز بعض السادة مشايخ الإسلام فيقول:

«وزيور يحترم البرنيطة؛ حتى إنه لا يردُّ لحاملها طلبًا. وحتى لقد زعموا أن بعض كبار علمائنا الأعلام، مصابيح الدجى وعُمد الإسلام، بعد ما أعياه الكد والجهد وشدة السعي وطول الوقوف بالأبواب في سبيل وظيفة خالية، عزم أخيرًا على لبس القبعة؛ لعله يَحظى بمعونة زيور على إفتاء الديار أو مشيخة الإسلام، ومولانا الشيخ المذكور أعلاه لا يعدم ألف فتوى من الشريعة، تحلُّ له هذه الذريعة.»

باسم الأمة والحكومة

ويصف الدكتور محجوب ثابت فيقول:

«هو في ميراثنا القومي لا يقل عن آثار سقارة، وجامع السلطان حسن ومقابر الخُلفاء. وهو جزء من تقاليدنا، كحفلة المحمل ووفاء النيل وشم النسيم. وإنك لتراه كلما ساروا بضَحية حُرية — يقصد شهيد — كان الدكتور أول المشيعين. فإذا كان اجتماع في الأزهر كان فارسه المعلم، فإذا تعانق الهلال والصليب كان هو الهلال. وإذا اعتدى أحد على جماعة الأرمن طار الدكتور إلى دار قنصليَّتهم يخطب جمعهم ويعقد معهم المعاهدات باسم الأمة والحكومة.»

مُطالب سابق

وكتب مرة في السياسة اليومية مُطالِبًا الدكتور محجوب ثابت بأن يكتب على بطاقته: دكتور محجوب ثابت، مطالب بالسودان سابقًا، وعضو نواب حاليًّا.

فكري زمان

وكتب مرة يصف صديقًا، فقال:

«متكوِّر الوجه، أضيق العينين في ضيق محاجر. مقرون الحاجبين، لو رأيته مع إخوته لحسبته بعض تلك النباتات التي تخرج وحدها، لم يتعهدها مِنجَل البُستاني بالتسوية والتهذيب، هل عرفت الصديق الذي كان يصفه الظريف ... البشري:
«إنه الأستاذ فكري أباظة».»

المشق بالسياط

ويشن الشيخ البشري حملة رهيبة على المتقعِّرين في الفُصحى، الذين يتشبثون بالغريب من اللفظ، حتى لتحسبهم يكتبون رطانة، فيقول إذا أبيتم ألا يتندَّر الناس إلا بالفصيح فعليكم أولًا بتحفيظ الأمة كلها المعلَّقات السبع والمذهبات السبع والمنتَقَيات السبع

والملحمات السبع، وأنا زعيمٌ لكم بأن الناس لن يعودوا يسمعون في أعراس أولاد البلد في قافية أسماء الشوارع مثلًا: اللي على جِتتك! اشمعنى؟ الضرب الأحمر. وسيسمعون بدلها — إن شاء الله: هذا البادي على جُثمانك؟ ما باله؟ من أثر المشق بالسياط!

ويداعب حافظ إبراهيم في بابه المختار ... المرآة ... فيقول: «جهم الصوت، جهم الخلق، جهم الجسم، كأنما قُدَّ من صخرة في فَلاة موحشة، ثم فكر في آخر لحظة أن يكون إنسانًا فكان والسلام، أمَّا عيناه فكأنهما دقَّتا بمسمارين دقًّا وأما لون بشرته — والعياذ بالله — فكما عُهد به إلى نقاش مبتدئ تشابهت عليه الأصباغ والألوان فذاب أصفرها في أخضرها في أبيضها في بنفسجها، فخرج خرجًا من هذا كله لا يرتبط بواحد منها بسبب. وإذا أطلقته في البر حسبته فيلًا، وإذا أطلقته في البحر حسبته درفيلًا.»

أعور شِمال

ويقابله صديق في الطريق فيشكو له الشيخ البشري من ألم شديد في المُصران الأعور، ويشير له على مكان الألم في الجانب الأيسر من بطنه، ولكن الصديق يُطمئنه بأن المُصران الأعور لا يوجد في الناحية اليمين، ويُجيب البشري في هَمٍّ شديد: يمكن أنا أعور شمال.

نظرة عميقة

ولم يكن البشري مجرد ساخر من الناس والحياة؛ بل كان فنانًا عميق النظرة، رقيق الإحساس، وله بحوث قيِّمة في الغناء والقراءات والشِّعر والأدب، وعاش حياة عريضة حافلة. وسُئل قبل وفاته بأيام عن أعظم شاعر ... فأجاب: عبد الحميد الديب. وأعظم أشعاره قال:

تعلمت فيها صبرَ أيوبَ في الغِنى وذُقت هُزالَ الجوع أكثر من «غَاندي»
جوارك يا ربي لمثليَ رحمةٌ فخُذني إلى النيران أو جنة الخلد

وكأنما كان الشيخ البشري ينعى نفسه، فمات بعد ذلك بأسبوع، وكان قبل ذلك بأيام ملءَ السمع وملء البصر. وضاعت مع الشيخ البشري فترة من أجمل فترات تاريخنا.

السيد ... العبد

إمام العبد

دخل الأدب بأزجاله، وهي أزجالٌ لا تقف على أقدام ... ولكنه فرض نفسه على الأدب والأدباء من خلال النكتة والقافية.

لعلَّه أغرب أديب في زمانه وفي كل الأزمان، فقد دخل الأدب بأزجاله، وهي أزجال لا تقف على أقدام، ولكنه فرض نفسه على الأدب والأدباء من خلال النكتة والقافية! ونُكتته ليست مُسلية وليست مُضحكة، ولكنها قاسية وتحمل رأيًا، فهو ناقد أذِن أسلوبه في النقد أن يُنكت عليك وعلى الآخرين. ولقد كانت قسوته أمرًا حتميًّا، جاءت نتيجة وضعه الاجتماعي؛ فهو ابن عبدين اشتراهما أحد الأثرياء الأغنياء من سُلالة الترك، وكان إمام العبد هو نِتاج هذا الزواج الفريد ... الغبي!

نشأ إمام العبد في بيت ليس بيته، ومع ذلك يضم أبويه. والكلمة الأولى والأخيرة فيه لرجل جاهل كحمارٍ، غبي كثورٍ، عديم النشاط والإحساس كأنه سلحفاة، وكان الطبيعي والحتمي لولدٍ في مثل ظروفه أن ينشأ ويتعلم ويتربَّى ليصبح بوابًا أو سايسَ خيول، أو طباخًا على أحسن الفروض. ولكن الخطأ الذي وقع فيه الباشا التركي أنه أرسل إمام إلى المدرسة. وفي المدرسة تعلَّم إمام القراءة والكتابة، وفي المدرسة أيضًا شاعت قصة حياته؛ فأصبح مُضغة في الأفواه، وكان لابن العبد أن يدافع عن نفسه، وكل إنسان يدافع عن نفسه بما تملكه يداه، ولم يكن إمام العبد يملك شيئًا إلا لسانًا أطول من حبل الغسيل، وأحدَّ من سيف المقاتل، وأشد فتكًا من سُم الثعبان.

وهكذا حمل إمام العبد سلاحه واقتحم المعركة غير آسفٍ ولا هيَّاب.

ضد الجميع

والإنسان — أي إنسان — لا يولد شريرًا بطبعه، ولا يولد طيبًا من بطن أمه. ولكن الإنسان، يتخذ موقفه دائمًا على ضوء موقف المجتمع منه ... وعندما تكون رجُلًا مُهابًا ومحترمًا من الناس فأنت بالضرورة طيب مع الجميع ... وعندما تكون مُسخة وملطشة فأنت بالضرورة ضد الجميع ... وهكذا أصبح إمام العبد ضد الجميع؛ لأنهم جميعًا كانوا ضده.

ولكن إمام العبد لم يكن شريرًا، كان ظريفًا؛ ولذلك لم يخرج على المجتمع، ولكنه آثر أن يتتريق عليه. وبرع إمام العبد في النكتة حتى صار أحد أعلامها في مطلع القرن العشرين، وأصبح زينةَ كل مجلس ومقصد كل فنان. والتفَّ حول العبد كل مشاهير عصره، وكان أقربهم إليه عبد العزيز البشري وحافظ إبراهيم.

وذات مساء كان حافظ يزوره في بيته، وخرج العبد من الحجرة بعض الوقت ثم عاد ليأمر حافظ بأن يلقي بالسيجار التوسكاني الذي كان يفضِّله خارج الدار. وعندما سأله حافظ عن السر في هذا الطلب الغريب، قال العبد: «أصل أبويا فاهم إن إحنا مولعين الفرن بجِلَّه.» والجلَّة هي روث البهائم الذي يستعمله الفلاحون في الوقود.

وذات مساء خرج آخر الليل من البار مع شفيق المصري، وكانت ليلة باردة من ليالي الشتاء، واستقلَّا عربة حَنطُور ومضى بهما الرجل على غير هُدًى، وأخيرًا سألهما: البهوات رايحين على فين؟ ورد العبد وهو يرتعش من البرد، الدنيا برد إحنا مش قادرين نتكلم، إذا كنت عاوزنا نرد عليك أُقَف في شارع دَفَا وإحنا نقولك.

الجزار الأديب

وكان له صديق جزار هجر الجزارة واحترف الأدب، وكان الجزار يجلس مع العبد وحافظ إبراهيم، فقال حافظ للجزار: إزي الحال؟ وقال الجزار: الحمد لله. وعاد حافظ يسأله: الجزارة الأحسن والَّا الأدب، فأجاب العبد على الفور: هُوه لما كان جزار، كانت الكلاب بتمشي وراه، دلوقت لما أصبح أديب، بقى يمشي ورا الكلاب.

وليس في العالم أبلغ نقدًا لمهنة الأدب من هذه النكتة الخاطفة القاتلة، وكأنه يطلق قنابل من مدفع ميدان.

وكان البشري بخيلًا إلى حدٍّ ما، فقال عنه العبد: «البشري مش ممكن يركب تاكسي إلا إذا كان بُوزه ناحية حلوان.» ولما سأله الحاضرون عن السبب أجاب: «أَصلي بيخاف أحسن العداد يعمل فلوس في التدويرة.»

ولم يكتفِ بالتنكيت على الناس، بل نَكَّت على نفسه؛ كان يجلس في بار اللواء يكتب خطابًا لصديق، فتساقطت نقطة من الحبر على الأرض، فقال على الفور، يا خبر اسود، الواحد بقى يعرق كتير اليومين دول!

وكان يجلس مرة مع حافظ محمود، وكان يرتدي كرافتة سوداء، فقال له حافظ محمود زَرَّر قميصك يا إمام، «باعتبار أن الكرافتة جزء من جلده»، ورد إمام على الفور: «أما يبان جلدي، أحسن ما يبان عرضي.»

وكان له صديق شديد الكبرياء وشديد الفقر، فقال عنه العبد: «مرة صاحبنا ده كان ماشي في السكة وبعدين لقى نص فرنك، فضل واقف جنبه لحد ما فات واحد فقير، فنادى عليه وقال له، وطي يا ولد هات النص فرنك ده.»

وقف يتفرج مع صديق على خناقة حامية، والمتشاجران يتشاتمان. ثم يكفان عن الشتائم، ويقتربان من بعض ثم يبتعدان ... ومضت نصف ساعة كاملة ولم تمتدَّ يد أحدهما على الآخر. وسحب العبد زميله وقال له: «يا عم ياللا بينا، دي إشارة بس، لكن الخناقة الأسبوع القادم!»

وكان لأحد أصدقائه سيارة قديمة مهكَّعة، وكان دائم الركوب فيها ثم انقطع عن ركوبها فترة من الزمان، ولما سألوه عن السبب قال: «يا عم أنا ركبتها أسبوع نعل جزمتي داب.»

طلب منه أديب تافه أن يستمع إلى قصيدة من قصائده، فقال له العبد في همس: «طب استنى لما نروح خرابة أحسن حد يشوفنا.»

نُعي إليه أحد أصدقائه، وكان صاحب ورشة لحام، فقال في لهجة آسفة: «الله يلحمه.»

هنا كانت عبقرية إمام العبد الحقَّة، أما إمام العبد كزجَّال فقد كان من نوع الزجالين الوُعَّاظ، غير أن وعظه كان ظريفًا وخفيفًا؛ لأن الرجل نفسه كان كالطائر الصدَّاح.

وكان الظريف من بيت أدب،
وكان أبوه حازم وصاحب عكاز.
ماشي على دين الليالي عجب،
والعمر مخلوق للسهر والقمار.
مالت عليه واحدة وقع في الشَّرك،
وبات أسيرًا للحظ من غير سبب،
وكلما يحضر تقول: الملك
حضر وتقديم التحية وجب.
ضيع عليها المال بسحر العيون،
وجاب له حلية بألفين جنيه.
صبح، على كيفه، أسير الديون،
وثروته في اسم باشا وبيه.

وهو زجال كما ترى من الدرجة العاشرة، ولكن نكته وقفشاته كانت من طراز عظيم.

ومات قبل أن يصل إلى الخمسين، ولو أن أحدًا من معاصريه عُني بجمع تراثه لكان للعبد شأن آخر، فهو لم يكن صاحب نكتة فارغة، ولكنه كان أديبًا يصوغ أدبه في نكتة، وكان شاعرًا قصائده قفشات، وكان رسامًا لوحاته عبارات ينطقها بنت اللحظة، وكان مُقاتلًا خنجره لسانه.

في آخر أيام حياته قال له صديق عجوز: تعرف يا عبد لو احنا زمان أنا كنت اشتريتك ... وقال العبد: «عندك حق ... اللي زيك زمان كانوا بيشتروا العبيد عشان الزوجات!»

رحم الله العبد، لم يبقَ منه الآن إلا كلمات على ألسنة المحبين وما تبقَّى من الأصدقاء!

عبد الحميد الديب

ويدور عبد الحميد في الحلقة المفرغة حول نفسه، يستجدي الناس ويشتمهم، ويقرض شعرًا، سيظل رغم كل ما يقال فيه، أصيلًا في حياتنا، وله في تاريخنا تاريخٌ.

عام ١٩٣٠م، وصدقي باشا يحكم مصر بيَدٍ من حديد، وكثيرون لا يستطيعون دفع الضرائب المستحقة عليهم، ويسقط عشرات قتلى المحنة بالذبحة والجلطة والموت المفاجئ السريع، وعساكر البوليس تجوب القرى والحقول.

وكان منهم والد الشاعر البائس الحزين، عبد الحميد الديب.

من دار العلوم ... إلى الشارع

حدث ذلك عام ١٩٣٣م، وكان عبد الحميد الديب في دار العلوم، ووجد نفسه فجأة بين أمرين، إما مواصلة الدراسة والموت جوعًا، وإما الخروج إلى الشارع والبحث عن طعام، واختار عبد الحميد الشارع، وخرج إليه.

ولكن ماذا يستطيع طالب دار العلوم الفاشل أن يصنعه، إنه يستطيع الوقوف عدة ساعات أمام بعض الصغار يعلمهم شيئًا مما تعلَّمه، ويقبض أصابعه كل نهار على قروش تساعده على الحياة، ولكن هذه المهنة الكئيبة لم ترق في عينيه طويلًا؛ فسرعان ما هجرها إلى الشارع من جديد.

وكانت نفسه قد امتلأت يأسًا وفاضت أسًى، وشبت في جوانحه نار الكراهية لكل الناس ... لم يكن عبد الحميد يعلم أنهم مثله مظلومون، ظنَّ هو — خطأً — أنهم مسئولون عن محنته.

وكان عبد الحميد يملك أدوات الهجوم على الناس؛ يملك لسانًا سليطًا، وموهبة تطيعه من قرض الشِّعر، خصوصًا عندما يكون الشِّعر موجهًا ضد أحد، حتى ولو كان هذا «الأحد» هو عبد الحميد الديب نفسه!

ويتساءل عبد الحميد الديب وهو في المحنة التي لا يعرف مبررًا لها، هل هو حقًّا مخلوق آدمي، له نفس الحقوق التي للآخرين؟ يتساءل في شِعر حزين يقطر ألمًا وحزنًا وكفرانًا بكل شيء:

أخلقتني يا رب أم أنا واهمٌ؟ أنا ما خُلقت؛ لأنني لا أُرزق!

وهو يكره الناس، ويعدُّهم مسئولين عن محنته، إنهم يسخرون منه؛ فلا بد أن يسخر بهم، هؤلاء الذئاب أكَلة لحوم البشر.

لم أدرِ ماذا طعمتم في موائدكم؟ لحم الذبيحة أم لحمي وأخلاقي
بين النجوم أناس قد رفعتهمو إلى السماء فسدُّوا باب أرزاقي

وينظر عبد الحميد إلى نفسه ... إنه لا يجد ما يأكله. وأيضًا لا يجد ما يستره:

وجلبابي كمصطاف الغني نوافذًا ومشتى الفقير ابن السبيل هشيمًا

والناس ليس عندهم وفاء ... وأصدقاء الطفولة والصبا لا يرحمون تدهوره، وتتحالف عليه المِحن، الزمن الغادر والأصدقاء، وعبد الحميد يجترُّ حسرته في شِعره:

ليت العِبادَ كلابٌ، إنَّ كلبتَنا لما تزل لحفاظ الودِّ عنوانًا
تحمَّلت قسطَها في البؤس صابرةً لم تَشْكُ جوعًا ولم تستجْدِ إنسانًا

يسخر من نفسه

ولكن ماذا يفعل هو، وقد فقد كل شيء حتى المقاومة، إنه يستسلم الآن للمصير الذي انتهى إليه، إنه كرجل سقط من فوق عمارة مرتفعة، فهو لا يستطيع إلا أن يدور مع الريح في كل اتجاه!

دع الشكوى وهات الكأس نَسكَر ودعك من الزمان إذا تنكَّر
وهام بيَ الأَسى والبؤس حتى كأني عبلةٌ والبؤس عَنتَر
كأني حائطٌ كتبوا عليه: هنا يا أيُّها المزنوق «ترتر»

وهو في نفس الوقت يحقد على الحياة، ويتمنى أن تزول، إنه أناني سَوَّد الحرمان قلبه، وحطم نفسه، إنه ذئب هو الآخر ... مثل الآخرين.

ويا ليت السما تهوي علينا ويا ليت النجوم الصاعقات

إنه ينسى نفسه هذه المرة ... ويذكر «علينا» لأول مرة، لقد أصبح عبد الحميد شمشمون. يودُّ لو تهدَّم المعبد على رأسه، وعلى كل أعدائه ... والبشر جميعًا أعداء لعبد الحميد.

ويدور عبد الحميد في الحلقة المفرغة حول نفسه، يستجدي الناس ويشتمهم، ويقرض شِعرًا، سيظل رغم كل ما يقال فيه، أصيلًا في حياتنا، وله في تاريخنا تاريخ.

حذاء جديد

ولكنَّ عبد الحميد لا ينسى في ساعات صفوه أن يُضحك الناس، وأن يُبهجهم؛ يقابله صديق مرة فيتحاشاه عبد الحميد، ويهرع الصديق لعناقه ويسأل: لماذا يتحاشاه؟!

ويقول عبد الحميد إنه قد قرر أن يتحاشى الناس كلهم، فقد أصبح له حذاءٌ جديد وبدلة جديدة.

ويضحك الصديق حتى يستلقي على قفاه، فقد كانت البدلة والحذاء ليسا جديدين، ويغيب عبد الحميد أيامًا طويلة، ثم يعود للظهور من جديد ... ويسأله صديق عن سر غيبته ويجيب عبد الحميد: كنت في البلد، شفت «الفدانين» ورجعت، ويتساءل الصديق مندهشًا: فدانين ايه؟ ويجيب عبد الحميد: واحد صاحبي اسمه محمد الفدانين.

وكان يجلس الساعات الطويلة يروي قصة مغامراته مع النساء، وكيف أن سيدة متزوجة من رجل عظيم وقعت في هواه، وكيف ذهب معها إلى شاطئ البحر، وقضى معها أيامًا جميلة بهيجة.

ويسكت عبد الحميد الديب، ثم يرتفع صوت صائحًا: عليَّ الطلاق ما حصل يا عبد الحميد، ويصيح عبد الحميد على الفور: عليَّ الطلاق ما حصل.

حل العمائم

ويذهب عبد الحميد مع أحد أصدقائه إلى قرية قريبة من القاهرة ليؤدي واجب العزاء في وفاة أحد مشايخ الأعراب.

وكان السرادق مكتظًّا بالناس أصحاب العمائم، ويقف عبد الحميد على دكة خشبية ويصيح في الجالسين وهم آلاف: أيها الناس، قال رسول الله ﷺ: إذا مات عزيز لديكم فحلوا عمائمكم ... ويُخيم الصمت على السرادق، ويحل جميع الموجودين عمائمهم في صمت، ثم يرتفع صوته من جديد، أعيدوها كما كانت.

ويكشف عالم من الأزهر كان في السرادق، وأخذته المفاجأة فحل عمامته هو الآخر، ويكشف أنه ليس هناك حديث نبوي في هذا الشأن على الإطلاق!

وتثور الجماهير على عبد الحميد الذي غرر بها، ويلزم عبد الحميد فراشه بعد ذلك شهرًا كاملًا لا يستطيع أن يبرحه من أثر الضرب الشديد.

ولكن عبد الحميد رغم كل شيء يعيش في مشاكل لا حصر لها، وهو يريد أن ينسى مشاكله ... ولا سبيل إذن إلا المخدرات، ويغرق عبد الحميد في بؤرة الهيروين، ثم تظهر له وظيفة في الأفق ... عام ١٩٤٣م.

أرادت السلطة البريطانية أن تُظهر للناس قوتها في ميدان الحرب، فجاءت بطائرة ألمانية سقطت في معركة العلمين، ووضعتها في ميدان قصر النيل، ليراها الناس، وكان لا بد من رجل يرشد الناس إلى قصة الطائرة، وكان الرجل عبدَ الحميد، ولم تمضِ شهور حتى أزيلت الطائرة من الميدان، وعاد عبد الحميد إلى الشارع.

مشرد رسمي

ثم يأخذه الأستاذ عبد الحميد عبد الحق ويوظفه بوزارة الشئون الاجتماعية، وبمرتب شهري قدره ستة جنيهات.

ستة جنيهات ليأكل وينام ويلبس كما يفعل سائر الموظفين، ولا سبيل الآن إلى التسول، فهو موظف حكومي كبير ... ويضيق عبد الحميد بالوظيفة وما جرَّته عليه فيقول:

بالأمس كنتُ مُشَرَّدًا أهليًّا واليوم صرتُ مشردًا رسميًّا

ويهجرها إلى الأبد، ليعود إلى الشارع يشتِم الناس ويستجديهم، وتشتد عليه العلة ويقسو عليه الداء ... وينتهي به الحال أخيرًا إلى فراشٍ قذر بمستشفى قصر العيني.

وكأنما لمح عبد الحميد نهايته ... لقد آن لهذا الكادح المعذَّب الذي قست عليه ظروف أقوى منه كثيرًا، هي الظروف التي جرَّت على أبيه الخراب، وقتلته محسورًا، وألقت به هو إلى الشارع مع الكلاب ... آن له أن يستريح ويهتف عبد الحميد وكأنه يرى مصيره المحتوم:

وداعًا شبابي في ربيعِ شبابي وأهلًا حسابي قبل يوم حسابي

ثم يقمص عينيه ويستريح إلى الأبد.

ولم يترك خلفه شيئًا، سوى عشرات من القصائد، بعضها يصلح للنشر، وبعضها يعاقب عليه قانون العقوبات، وحجرة قذرة مُعتِمة كان ينام فيها أحيانًا ولم يكن بها شيء، كان هو فيها كل شيء.

لم يذكره أحدٌ عندما مات. رجل واحد فقط ذكَّر الناس به؛ فقد كان صديقًا له في حياته، هو الشاعر الكاتب المعروف كامل الشناوي، فقد كتب يومها يقول:

«اليوم مات شاعر تعرَّى واكتست الأضرحة، جاع وشبعت الكلاب.»

وكم من الكلاب ماتت بالتخمة، وكم من الناس ماتوا مثل عبد الحميد الديب من الجوع.

الأعمى المُبصر ... ناجي

إبراهيم ناجي

شيء واحد كان يحسُّه ناجي بوضوح ... هو وحدته، والوحشة التي كان يعانيها، والإخلاص الساذج المزَّق الذي تتمسك به نفسه الشفافة الحانية.

عاش وإحدى عينيه مفتوحة على حقائق بشعة من الحياة، والعين الأخرى نصف مغلقة، تثقلها الأحلام.

هكذا وصف ناقد من معاصرينا الشاعر إبراهيم ناجي ... والحقيقة تخالف رأي الناقد ... فقد عاش ناجي وإحدى عينيه مغلقة، والأخرى نصف مفتوحة.

ومن خلال هذه الفتحة راح ناجي يرى حقائق مشوَّهة ليست واضحة، وبالعين المغلقة راح يحلم بعيدًا عن المجموع أحلامًا حاول أن يفرضها على الواقع ... ولهذا السبب لم يلمع شِعره — رغم جدته وقوته — لأنه لم يدرك سر القوة التي تجعل من الواقع عالمًا أقوى وأجمل وأعذب من الأحلام ... فناجي واحدٌ من الذين لم يكتشفوا سر انقلاب الأوضاع حتى بدت بشعةً رهيبة، فارتدوا مُنطَوين على يأس قاتل ... ولكنهم أحيانًا كانوا ينطلقون، كلٌّ منهم بنفسه ثم يعود منفردًا كما انطلق ... فلم يُتَح له ولا لغيره من أمثاله أن يشعروا بالقوة التي تمنحها الجماهير للذين يُعبِّرون عن إرادتها، فظل حياته كلها يجترُّ أحزانه، ويُغَني للحياة غناءً كأنه الأنين ... بائسًا يائسًا يثير الرثاء.

ولكنَّ ناجي رغم ذلك لم يفقد أبدًا القدرة على الإبداع ... وكان له فضل عظيم على شِعرنا المعاصر؛ فقد استطاع تحريره من أصفاد ثقيلة قعدت به عن تحقيق أهدافه زمنًا

طويلًا ... وفتح أمامه طريقًا واسعًا انتهى به على أكتاف شباب الجيل المعاصر إلى دنيا الجماهير، يخاطبها ببساطة ويترجم أمانيها في عذوبة، أو يدفع بعجلة الحياة في إصرارٍ إلى الأمام.

شيء واحد كان يحسُّه ناجي بوضوح ... هو وحدته، والوحشة التي كان يعانيها، والإخلاص الساذج الممزَّق الذي تتمسك به نفسه الشفافة الحانية.

أرنو إلى الناس في جموعهم أشقَتْهم الحادثات أم سعدوا

تصور، إنه لا يدري ... وهو نفسه لا ينكر ذلك ... فهو أعظم من غيره ... إنه لا يدَّعي خبرته بالناس والحياة والسر كما قلت، إنه كان غريبًا عن دنيا الناس ... لم يكن يحيا معهم ولا بينهم.

إني غريب تعالَ يا سَكَني فليس لي في زحامهم أحد

طرف واحد

ومن أجل هذه الوحدة عاش ناجي طول حياته حائرًا لا يستقر على حال ... ولعل هناك سببًا آخر، هو غرامُه العنيف الذي كان يعيش فيه ويعيش له ... غير أنه — وهنا العقدة — كان غرامًا من طرف واحد ... فقد كان هو وحده الذي يحب ... أما الطرف الآخر، أو الأطراف الأخرى، فلم تكن تحسُّ بوجوده ... وإن أحسَّت، فلم يكن هذا الإحساس يزيد عن كونه شاعرًا مشهورًا ورجلًا من الظرفاء.

والعقدة التي حولت كثيرين من أعلام الفن، أمثال لوتريك وكافكا، إلى هوة سحيقة من اليأس، هي نفسها التي أمدت ناجي بالأمل ... وحلت عقدة لسانه فجعلته لاذعًا، ومن هنا أيضًا جاءت شهرته كواحد من الظرفاء.

فناجي الفنان كان ضئيلًا قصيرًا، غير متناسق الأعضاء، ولأنه لم يكن مؤمنًا بشيء على الإطلاق فقد سخر من كل شيء، وأثار السخرية على كل شيء ... حتى على عمله وعلى نفسه.

روى مرةً أنه عاد مريضًا مشرفًا على الموت، فوصف له الدواء واشتراه من جيبه، ثم منحه جنيهًا وانصرف.

ومضت أيام طويلة حتى التقى بزوجة الرجل المريض، وكانت سعيدة مبتهجة، وسألها ناجي عن حالة زوجها فأجابت مسرورة: الحمد لله ربنا يخليك لنا يا دكتور ... الجنيه بتاعك جِبنا به دكتور كويس، وربنا شفاه والحمد لله ... ويضحك ناجي حتى يستلقي على قفاه.

كلب بوليسي

وخلال أيام الظلام، عندما فرض الطاغية فاروق على القاهرة أن تنام في السادسة من مساء كل يوم ... كان ناجي يحمل تصريحًا يُخَوِّل له حق التجوُّل في أي وقت يشاء.

ثم ذات ليلة هاجم كلبٌ ضال ناجي أثناء سيره في الطريق، وعضَّه في ساقه فلزم الفراش، وراح ناجي يروي القصة لأصدقائه، قال: أنا ماشي الساعة واحدة، والكلب ماشي ورايا ... أطرده ما فيش فايدة ... أزوغ منه ألقاه ورايا ... افتكرته في الأخر كلب بوليسي ... ورحت مِطلَّع التصريح، وعلى طول يا أفندم وراح هاجم عليَّ وعاضضني.

ويضحك ناجي ويقول: ظهر أنه كلب جاهل ما بيعرفش يقرأ.

آجرني

ومرة خرج ناجي من عيادته بشبرا فشاهد جنازة يبدو من مظاهرها أنها لرجل فقير ووحيد أيضًا، فلم يكن خلف النعش سوى أربعة رجال يبدو أن الصدفة وحدها هي التي جمعتهم، وسار ناجي بدافع الشهامة مع المُشيِّعين، ثم خطرت له فكرة رائعة، لماذا لا يشترك في حمل النعش حتى يكسب ثوابًا ... ونفَّذ الفكرة على الفور ... يقول ناجي: ودخلت على الراجل اللي شايل من قُدام ... وقلتله: آجرني (تعبير يقال في مثل هذه المناسبة) فراح مآجرني على طول زي ما يكون كان منتظرني ... وشلت الخشبة يا أستاذ من شبرا لغاية شبرا البلد ... والميت الله يرحمه كان تقيل ... والدنيا حر ... ولا واحد عاوز يآجرني ... وصلنا شبرا البلد، حمدت ربنا لأن التُّرب هناك، لكن المصيبة الكبرى إن واحد من المشيعين لقيته بيسأل العسكري ببلاهة: وحياتك قليوب من أي ناحية؟

ويقول ناجي: وعندئذٍ سقطت فوق الأرض، والميت من فوقي وعندما أفقت لم أجد أحدًا ... سوى الظلام.

شاعر ملكي

وكان — رحمه الله — يستقلُّ عَرَبة مع صديق له في طريقهما إلى الإسكندرية عبر الطريق الزراعي، وأوقفت العربة إحدى نُقط المرور لسبب ما ... وأراد الصديق أن يدلل على أهمية صديقه لعسكري المرور، فقال له مشيرًا إلى ناجي: الدكتور إبراهيم ناجي الشاعر الكبير.

ونظر العسكري في بلاهة إلى الدكتور ناجي ثم قال متسائلًا: بتجول شاعر؟ ... أُمَّال يعني لابس ملكي ليه؟!

إحراز قصيدة

وكان ناجي يضيق ضيقًا شديدًا بشاعر شاب ثقيل الظل يصر دائمًا على أن يُسمع ناجي قصائده التافهة ... ولم يكن ناجي يجرؤ على جرح شعور هؤلاء الشبان الذين كانوا يتهافتون على صداقته ... ولكنه لم يكن يخفي ضيقه بشاعرنا الثقيل ... فقد كان يتبعه كظلِّه ... ثم ظهر ناجي مرة وحيدًا وليس معه أحد ... وأقبل عليه أصدقاؤه يهنئونه: مبروك، خير إن شاء الله، مات ولا ايه؟

وصمت ناجي قليلًا ثم قال: أبدًا، سمعت دلوقت أن البوليس قبض عليه.

– قبض عليه، ليه؟

– ضبطوا معاه قصيدة ... ولو أنكر إنها بتاعته، أنا حشهد ضده.

بين الدكاترة

ونقده طه حسين نقدًا قاسيًا؛ فوصفه بأنه أديب بين الأطباء، طبيب بين الأدباء. وعلَّق المرحوم ناجي على هذا النقد القاسي بنكتة فقال: أنا من هنا ورايح حكون طول النهار مع «الدكتور» طه حسين و«الدكتور» طه بدوي ... عشان أحس إني أديب ... هو مش قال عليَّ إني أديب بين «الدكاترة».

لو جلس

وكان يحب الشاعر أبا نواس ويُفضِّله على كل الشعراء القدامى، وكان يقول: إن أبا نواس نقطة تطور في الطريق الذي لا يقف ولا يجمد — طريق الفن — ويستشهد ببيتين

من شِعره ليدلل على عظمته ... وفي هذين البيتين كان أبو نواس يسخر سخرية مرة من أصحاب المذهب الاتِّباعي في قرض الشِّعر ... الذين يبدءون بذِكْر الأطلال والرسوم الدَّارسة، ويقضون الساعات الطوال وقوفًا يبكون على الذي كان.

قل لمَن يبكي على رسم درس واقفًا ما ضر لو كان جلس

علي علي

وسأل شاعرٌ شابٌّ الدكتور ناجي عن رأيه في شعراء العصر الحديث ... فأجاب: أعظمهم شوقي.

وسأل الشابُّ: مَن يأتي بعده؟

وفكر ناجي قليلًا ثم قال: يأتي بعده ... علي علي.

وقال الشاب مستنكرًا: مين علي علي ده؟

وأجاب ناجي: والله ما عرف.

وهكذا عاش ناجي ساخرًا متفكهًا يجترُّ أحزانه في صمت ... وإن كانت أحزانه قد طَبَعت شِعره ... وحولته حتى أصبح رمزيًّا ... يحلم بشيء لا يراه ... وهكذا أيضًا غلب التشاؤم واليأس على نظرته للحياة ... وكان يراها تافهة لا تستحق العناء. وكان يخشى الغد ويهابه؛ فلم يكن يدري أن الغد سيكون حتمًا من نصيب الجماهير ... ولذلك لم يحاول أن يشترك في صُنع الغد ... لأنه لم يكن يؤمن به.

إن غدًا هُوَّةٌ لناظرها تكاد الظنون ترتعدُ
أُطِلُّ في عُمقِها أُسَائِلُهَا أفيكِ أخفَى خيالَه الأبدُ

مش دكاترة

ومرِض طويلًا قبل وفاته ... وحزَّ في نفسه أن المبلغ الذي ادَّخره طول حياته استنزفه الأطباء لعلاجه ... علاجه هو، الأديب الطبيب الذي كان يفحص المريض ثم يشتري له الدواء والطعام، ثم يمده بشيء من المال إن استطاع، وعندما شُفي من مرضه قال ضاحكًا: كل ما اجيب واحد دكتور ياخد فلوس فلوس ... اللي ما لقيت واحد رفض ... يكونش احنا مش دكاترة.

النهاية

وعندما مات كان في عيادته يمارس عمله ... وفجأة سقط على الأرض يتلوَّى من الألم ... وقبل أن يسعفوه كان قد مات ... وذهب الشاعر الأديب الظريف إبراهيم ناجي. الرجل الذي قضى حياته كلها، وإحدى عينيه مغلقة والأخرى نصف مفتوحة، حتى مات، فقدِّر له أن يُغلقهما ... ولن يستطيع فتحهما بعد ذلك أبدًا ... فقد ترك من خلفه شِعرًا مثل عينيه، لا يكاد يكشف ما في دنيا الناس من أوضاع خاطئة ... إلا قليلًا.

ربُّ المقالب ... حفني

حفني محمود

استخدم حفني محمود هذه الموهبة، موهبة صُنع «المقالب» في كل مهنة عَمِل فيها. استخدمها كسياسي، واستخدمها كوزير، واستخدمها ككاتب، وكصحفي وكصديق، وكان أولًا وأخيرًا يستخدمها كإنسان.

لا أدري كيف أبدأ الكتابة عن حفني محمود. هل أكتب عن حفني محمود ابن الذوات، سليل الأسرة القوية الثرية في الصعيد ... أم عن حفني محمود السياسي ذي النظرة البعيدة، والقبضة السحرية التي تجمع بأطراف كل الخيوط. أم عن حفني محمود الأديب، صاحب الأسلوب الساخر، والنظرة الواعية بكل ما يحيط به من أمور.

أم عن حفني محمود رجل السلام، أول «باشا» من أسرة كل أفرادها من أهل إقطاع، وهواة حكم، وهو يدعو للحب، ويدعو للسلام. ويُمجد الحرية ويهتف لها.

أم عن حفني محمود صاحب «المقالب» المشهورة، التي أضحكت الناس حينًا، وأبكتهم أحيانًا. وكانت خير إنتاج حفني محمود الفنان.

الحقيقة أنني فضَّلت أن أكتب حياته من خلال هذه «المقالب» والسبب، أن حفني محمود كان فنانًا. لم يجد ردًّا صادقًا يمكنه أن يرد به على أوضاع المجتمع المقلوبة إلا أن يسخر به، وبأوضاعه، وبمَن صنعوا هذه الأوضاع. إن الذين صنعوا هذه الأوضاع حفنة من الناس تنتمي إلى طبقة هو أحد أبنائها!

ولكن ماذا يهم؟ أنه ككل فنان يعمل ما يرضي الرجل الفنان. ثم بعد ذلك، فليأتِ الطوفان ... ولكنه لا ينسى الذين استسلموا لهذه الأوضاع المقلوبة، والذين ارتضوها. وهم عامة الشعب. ولذلك كانت سخريته من الجميع، ومقالبه كان يقع في شراكها، أبناء الشعب وأبناء الذوات كذلك.

موهبة المقالب

واخترت أن أكتب حياة الرجل من خلال هذه المقالب لسببٍ آخر، هو أن حفني محمود استخدم هذه الموهبة ... موهبة صُنع «المقالب» في كل مهنة عَمِل فيها ... استخدمها كسياسي، واستخدمها كوزير، واستخدمها ككاتب، وكصحفيٍّ، وكصديق، وكان أولًا وأخيرًا يستخدمها كإنسان.

وفي هذا الحيز الضيق سأحاول جاهدًا أن أسرد بعض «مقالب حفني محمود» تاركًا للقارئ استخلاص العِبرة، واستخلاص الموعظة، واستيعاب ما تقطره من سخرية حمراء ... كالدم.

هيكل فيلم

في أول عهد الوزارة الوفدية الأخيرة كان يتولَّى منصب مدير المطبوعات في وزارة الداخلية زميل طيب جدًّا، هو الدكتور عبد الباسط الحجاجي. ورفع حفني محمود سماعة التليفون وطلب الدكتور الحجاجي. ودارت بينهما المناقشة التالية: حضرتك عبد الباسط الحجاجي؟

– أيوة يا فندم.

– أنا مدير شركة هيكل فيلم.

– أهلًا وسهلًا.

– فيه والله قصة قدمتها الشركة من شهر ولم تخطرنا الرقابة بعدُ بالموافقة، مع أن شركة نحاس فيلم قدمت قصة بعدنا وُوفِق عليها، فالمسألة إذا كانت محسوبيات عشان نحاس فيلم بتاع رفعة الباشا وهيكل فيلم في المعارضة، يبقى المسألة لها وجه تاني.

– لا يا فندم مافيش محسوبيات أبدًا ... وأنا كمان ما كنتش أعرف أن نحاس فيلم بتاع رفعة الباشا، وكمان ما كنتش أعرف أن هيكل باشا عامل شركة أفلام.

– لا، أهوه ده اللي حصل.

– طيب، الصبح إن شاء الله، رايح أطلب القصة بنفسي وأشوفها.
– متشكر.
– مين اللي بيتكلم يا فندم؟
– هيكل باشا.

وفي الصباح طبعًا. طلب مدير المطبوعات قصة شركة هيكل فيلم، وروى قصة المكالمة التليفونية بينه وبين هيكل باشا. وكانت فضيحة كبرى.

مَثل آخر

يدعو أحمد خشبة رئيس الوزراء محمد محمود إلى حفلة غداء في بيته. ولا يدعو إليها بقية الوزراء.

ويمسك حفني محمود سماعة التليفون ليتصل بالوزراء واحدًا بعد آخر يدعوهم للغداء على مائدته ... مُقلدًا أصوات خشبة، ويفاجأ خشبة وضيفه بجميع أعضاء مجلس الوزراء يفدون إلى دار خشبة قبل الغداء بدقائق. ويضرب محمد محمود المائدة بقبضة يده وهو يصرخ: عملها حُفني، عملها حُفني «بضم الحاء».

حيدر باشا

ويطلب إليه أحد تُجار الخشب أن يتوسط له عند حيدر باشا، وكان وقتئذٍ قائد عام القوات المسلحة. يطلب إليه أن يُحدِّثه في أمر ابن شقيقته العسكري بالمشاة، لكي يُخلي سبيله.

وتصور أن رجلًا يطلب إليك أن تُوسِّط له قائد عام القوات المسلحة في أمر يتصل بجندي نفر في سلاح المشاة ... وينسى حفني محمود الحكاية كلها، ولكن الرجل يتعقبه ... في الصباح وفي المساء. وفي البيت وفي المقهى، وفي الشارع وفي كل مكان.

ويضيق حفني محمود بالرجل فيعتزم أمرًا، وفي منتصف الليل أمسك حفني محمود بسماعة التليفون وطلب حيدر في منزله، ودار الحديث الآتي: حيدر باشا.

– أيوة، مين؟
– أنا عبد القادر جودة تاجر الخشب.
– أي خدمة يا فندم.
– أيوة، عندكم الواد ابن أختي في سلاح المشاة، وعاوزك تديله أجازة.

ويفاجأ حيدر باشا بهذا الطلب الغريب من رجل لا يعرفه بعد منتصف الليل، فيسأل المتحدث: حضرتك عاوز مين؟

– حيدر باشا بتاع الجيش.

– وعاوزه عشان الحكاية دي؟

– آه، إيه يعني ... كبير حيدر باشا؟

– لا؛ ولا كبير ولا حاجة، بس اقفل السكة.

– اقفل السكة ياللي ...

وانتهت المحادثة. ولكن بعد أن استمرت ثلاثة أيام متتالية وفي نفس الموعد.

ثم طلب حفني من تاجر الأخشاب أن يذهب لمقابلة حيدر في مكتبه بقصر النيل ... ويفرح الرجل ويذهب.

كانت الساعة قد بلغت الواحدة ظُهرًا، وحيدر في مكتبه عاكف عن دراسة بعض الشئون الهامة، حين دخل سكرتيره ليقول له، إن بالخارج تاجر أخشاب اسمه عبد القادر جودة، ويريد مقابلتك.

ويقفز حيدر عند سماعه الاسم.

ونام تاجر الخشب عشرة أيام في المستشفى بعد ذلك، وكانت درسًا قاسيًا لن ينساه.

المؤلف العظيم

ورجل آخر يطلب من حفني محمود أن يُقدمه إلى أحد الأُمراء السابقين ليتولى طبع كتاب له ضد حزب الأحرار الدستوريين (ولاحظ أن حفني محمود من الأحرار)، ويعتذر حفني محمود، ولكنه يعطي للرجل الرقم السري لتليفون الأمير، ويطلب إليه أن يحدِّثه في الأمر.

ويتصل المؤلف بالأمير، ويطلبه الأمير في الحال ليطَّلِع على أصول الكتاب، فقد كان الأمير وقتئذٍ خصمًا لمحمد محمود، وبين الاثنين عداوة شديدة.

ويطير الرجل من الفرحة، ويهرول إلى قصر الأمير ويمسك حفني محمود بسماعة التليفون ويتحدث إلى الأمير على النحو الآتي: ألوه، أفندينا.

– أيوة، مين؟

– أنا المؤلِّف اللي كلمت سموَّك من دقيقة.

– أيوة، عاوز إيه تاني؟ أنا قلتلك تعالَ.

– لا فيه حاجة واحدة بس عاوز أقولها، وهي إنك حمار ومغفل. وإنك تتمتع بأخلاق عربجية مش أخلاق أمراء!

ويرطن الأمير بكل لغات الأرض سبًّا في صاحبنا المؤلف المظلوم: خرسيس، كلب بن كلب، أوعى تيجي، أحسن أقتلك!

– لا، وأنا هاجي رغم أنفك عشان أقول الكلام ده في وشك!

وينهي حفني محمود المناقشة عند هذا الحد.

كل هذا، وصاحبنا المؤلف يهرول سعيدًا إلى قصر الأمير، وعندما بلَغه كانت الساعة الخامسة بعد الظُّهر، وكان أمام الباب أكثر من عشرة رجال سُود من خدم القصر، وفي أيديهم مقشات وعِصِي، وأشياء أخرى، فقد أمرهم بضرب المؤلف علقة ساخنة عندما يصل.

وما كاد المؤلف المسكين يلفظ باسمه حتى انهال جميع الخدم عليه ضربًا وركلًا حتى فقد وعيه ... وحتى أصول الكتاب مزقها الرجال السود.

السر الحقيقي

وخلال الأزمة التي نشبت بين عبد الفتاح الطويل ووزارة الوفد الأخيرة، طلب حفني محمود رئيس تحرير إحدى الصحف اليومية الكبرى ودار الحديث الآتي: ألو، أنا الطويل، فيه مقال أرسلته للجريدة منذ دقائق وسيصلك حالًا بعنوان ... «السر الحقيقي وراء الأزمة الوزارية».

ويفرح رئيس التحرير للنصر الصحفي الكبير، ثم يعود حفني محمود إلى الحديث فيقول: بس والله قبل النشر تبقى تعرضه علينا.

– حاضر يا فندم.

– وهكذا أُعِد المقال للنشر في الصفحة الأولى. وفي الساعة الثالثة صباحًا دق جرس التليفون في بيت عبد الفتاح الطويل، وكان المتحدث هو رئيس التحرير: عبد الفتاح باشا، صباح الخير.

– صباح النور يا فندم، إيه الحكاية؟

– المقال بتاع معاليك أُعِد للنشر خلاص.

– مقال إيه؟

– المقال اللي بعتُّه.

– أنا ما كتبتش مقالات خالص. بعنوان إيه ده؟

– «السر الحقيقي وراء الأزمة الوزارية».

وينتفض عبد الفتاح الطويل من الغيظ ويصرخ في وجه رئيس التحرير: لا ... أنا رايح أبلغ النيابة.

ويقدم فعلًا بلاغًا للنائب العام ... ولم يظهر المقال بالطبع ... وكشف التحقيق أن صاحب المقال هو حفني محمود.

أخطرها جميعًا

ومن هذا النوع عمل حفني محمود مقالب كثيرة، ولكن أخطرها جميعًا كان في منزل أحمد الألفي عطية. وكان سيروح ضحيته صاحب المنزل ... لولا الصدفة وحدها.

كان حفني محمود يسهر مع الألفي عطية في منزله. وكان معهما كامل الشناوي ويوسف الشريعي. وفي الثالثة اعتذر الشريعي عن اضطراره لترك السهرة؛ لأن في منزله ضيوفًا من أسرة السعداوي، أقوى القبائل العربية في الإقليم.

ويخرج الشريعي، فيتصل حفني محمود بمنزل الشريعي فيرد عليه واحد من الضيوف، أفراد أسرة السعداوي. ويقول حفني محمود: مين انت؟ اديني واحد مهم شوية، واحد مهم شوية من فضلك. ويأتي زعيم السعداوية ليرد عليه: إيه الحكاية؟

– يوسف الشريعي مات، الرجل اللي اسمه الألفي عطية ضربه بالنار دلوقت في البيت اللي قصادكم على طول.

ويخرج أفراد أسرة السعداوي جميعًا مسلحين، ويحاصرون بيت الألفي، فقد قرروا قتله. لولا أن عاد الشريعي مرة أخرى إلى منزل الألفي عطية بعد أن ذهب إلى منزله فلم يجد أحدًا من الضيوف، وظن أنهم سافروا إلى الصعيد. ولكنه فوجئ عند عودته إلى بيت الألفي عطية بالضيوف جميعًا يحاصرون المنزل، وهم على أتم الاستعداد لقتله عندما يهمُّ بالخروج.

إلى دسوق

وبلغ من جبروته في هذا الفن أنه استطاع أن يقنع رجلًا صاحب صيدلية بالنوم في فراش أحد المستشارين. وأن يُفرق بين حافظ محمود وصديقه محمد الأسمر عامًا، وأن يقنع محمد محمود بضرورة تعيين أحد القضاة بالمعاش وزيرًا، لأن حفني محمود كان يتضايق من وقاره الشديد أثناء جلسته في بار اللواء، وأن يتفق مع طه الفشني وبطانته

بإحياء ليلة مولد في دسوق، ويسافر الشيخ الفشني ومعه البطانة إلى دسوق، فلا يجد أحدًا بهذا الاسم الذي انتحله حفني محمود ... عبده بك دبور ... ولكن حفني محمود الإنسان يرسل في اليوم التالي بمبلغ خمسين جنيهًا للشيخ الفشني، نفس الأجر الذي اتفقا عليه بصفته عبده بك دبور.

وهكذا عاش حفني محمود إلى آخر أيام حياته يضحك من الناس ويضحك عليهم ... وكان يحب الليل ... فكان يسهره كله ولم يحدث أن أوى إلى فراشه قبل إشراقة الصباح.

النهاية

وكما عاش خفيفًا كالفراشة ... مات فجأة كالخيال. وهكذا خبا الضوء في العين الذكية. وجفت الابتسامة على الفم الذي لم يعرف في حياته إلَّا الابتسام.

المازني ... ثالث الفرسان

إبراهيم عبد القادر المازني

> المازني الضاحك خير مَن يقول النكتة، حتى ولو كانت على نفسه ... فهو الذي أطلق على نفسه وعلى الأستاذ العقاد رقم ١٠ فالعقاد طويل، مُفرط في الطول كرقم واحد، والمازني قصير مثل الصفر.

ثلاثة فرسان ظهروا في عالَم الأدب في مرحلة دقيقة خطيرة ... مرحلة انتقال من عصر يُقلِّد ويحاكي ويتمسك بالإطار القديم دون الموضوع؛ لأن الموضوع لم يكن له وجود في أدب المدرسة الاتباعية، ثم جاء الفرسان الثلاثة في هذه المرحلة الخطيرة التي أخذ الأدب فيها ينسلخ من أردِيَته القديمة، إلى عالم جديد يهتم بالمضمون ويُعنَى بالتعبير عن النفسية الفردية، والنفسية الجماعية على السواء وكان الفرسان الثلاثة هم: عبد الرحمن شكري، وعباس العقاد، وإبراهيم عبد القادر المازني.

حياة صحفي

وعاش المازني حياته يكتب ويؤلف ويترجم ويشتغل بالصحافة، وكان المازني قبل ذلك يعمل مدرسًا ثم ناظرًا لمدرسة ثانوية حتى قامت الثورة المصرية عام ١٩١٩م، فنزل المازني إلى الميدان بقلمه، يكتب كل يوم مقالًا من نار في صحيفة «الأخبار» مع الأستاذ أمين الرافعي، وعندما توقفت «الأخبار» عن الصدور عام ١٩٢٥م، وقف المازني حياته على الكتابة والتأليف والاشتغال بالصحافة حتى مات في أغسطس عام ١٩٤٩م.

وحياة أديب

وبين أغسطس عام ١٨٩٠م، وهي السَّنة التي وُلد فيها المازني، وأغسطس عام ١٩٤٩م عاش المازني حياة ثائرة قلقة شديدة التأثر والانفعال ... وكان المازني ساخرًا ... ساخرًا بالأوضاع، ساخرًا بالقيم المتحجِّرة التي صنعها بعض البشر.

ومن خلال هذه السخرية، وُلد أدب المازني الخالد ... خالد لأن أدبه كان مصريًّا، فيه بساطة المصري ومرحه وإيمانه الشديد بالقضاء والقدر.

وهذه النقطة بالذات — الإيمان الشديد بالقضاء والقدر — أخذها الكثيرون على المازني، وهاجموه طويلًا ورموه باليأس، ولكن هؤلاء المهاجمين نسوا أو تناسوا أن المازني كان أصدق أدباء العصر الذي عاش فيه.

صديق الجميع

ولعل سر سخرية المازني ... صورته ... فقد كان قصيرًا نحيفًا، أعرج من أثر حادث قديم.

ولعلَّ أصدق وصف للمازني ما كتبه هو في مقدمة روايته الطويلة «إبراهيم الكاتب» فقال:

> «إنني سمحٌ متواضع، قانع، سلس عطوف، مغتبط بالحياة، راضٍ عنها قانع بها، أتلقى الحياة بغير احتفال، وأفتر للدنيا عن أعذب ابتساماتي، وأحس السرور يقطر من أطراف أصابعي كالعرق.»

وكان شغوفًا جدًّا بكتابات الكاتب الأمريكي الساخر مارك توين، واستطاع المازني أن يجد لسخريته اللاذعة مجالًا من المضمون المصري الذي يعيش فيه، فجاءت قصصه مصرية صميمة — بالنسبة لعصره — وأيضًا بالنسبة لما ظهر قبله، قصة «زينب» لهيكل، و«حديث عيسى بن هشام» لمحمد المويلحي، وساعده اشتغاله بالتدريس فترة طويلة على مخالطة الناس والاحتكاك بمختلف البيئات، وملاحظة الأفراد ومراقبة سلوكهم، ولذلك تعتبر قصص المازني مرآة للعصر كلِّه.

مدرسة المازني

ولعلَّ إنتاج المازني يعتبر القاعدة التي استند إليها كُتَّاب القصة من الشباب في جيلنا المعاصر، وعناوين قصصه تدل على مدى التجديد والجرأة في التجديد كذلك، «ع الماشي»، و«ميدو وشركاه»، و«على الحديدة»، و«الدكان»، ويقحم العامية في الأسلوب العربي أحيانًا.

الوصف الصادق

والمازني أيضًا كان أصدق الكُتَّاب في وصفه، ولم يصف الشمس مثلًا بأنها كطبق من الذهب، بل كان يتعمد اختيار وصفه من محيطه من الأشياء التي تقع عليها عيناه.

إنه يقول مثلًا: «أَقْدَم من هرم خوفو»، «معدتي طاعنة في السنة كمخلاة قديمة»، «أشكال ليس لها معارف كدرهم المسيح.»

وهو يصف زنجية فيقول: فكأنها زير عليه إبريق مقلوب فوقه كرة ذات ثقوب. وهو يصف الزواج فيقول:

«الزواج يشبه لبس الحذاء، والأعزب كالذي اعتاد الحفا.»

وهو في كتاباته سريع النكتة، جُمَله قصيرة متلاحقة مثل طلقات الرصاص، تمامًا مثل مارك توين وأوسكار وايد:

«وكانت لا تريد أن تتزوج، وصدقت؛ فما تزوجت لأنها ماتت.»
«كانت مشاكله كثيرة، حتى إنه كان لا يملك إلا أن يبدو سعيدًا.»
«كان شديد السُّكْر، حتى إنه كان يمشي متزنًا.»

رقم ١٠

وعندما نترك المازني الأديب، نرى المازني الضاحك خير مَن يقول النكتة، حتى ولو كانت على نفسه، فهو الذي أطلق على نفسه وعلى الأستاذ العقاد رقم ١٠، فالعقاد طويل، مُفرِط في الطول كرقم ١، والمازني قصير مثل الصفر.

وحدث مرة أن هوجم المازني والعقاد وواحد من أسرة النشاشيبي في مدينة القدس، ثم أطلق عليهم مجهول النار ثم انطلق هاربًا، وأثناء إطلاق الرصاص انطرح العقاد أرضًا، وأطلق النشاشيبي ساقيه للريح، وبقي المازني مكانه، وسألوه بعد ذلك عن سر ثباته أمام الرصاص فأجاب: أنا خُفت أجري ... الراجل يشوفني!

القصة بقرش

وكتب مرة في مقدمة كتاب له يحوي عدة قصص قصيرة يقول:

«يحوي هذا الكتاب عشر قصص قصيرة، سهرت في كتابتها الليالي الطويلة، ولقيت في طبعها عَنَتًا وإرهاقًا، وقدمته لك أيها القارئ بعشرة قروش، أي إن القصة الواحدة لا تساوي إلا قرشًا واحدًا.»

لتقوية الطرق

وروى مرةً أنه ذهب إلى طبيب أُذُن يشكو إليه من صَمَم جزئي ألمَّ به، ودلل للدكتور على صحة شكواه بأنه لا يسمع جيدًا الطرق على الباب، فوصف له الطبيب دواء مقويًا للسمع، وبعد فترة طويلة سأله الطبيب عن حاله، فأجاب على الفور: أبدًا، وداني زي ما هي، ولكن بسمع الخبط على الباب كويس، يظهر إن الدواء بيقوي الخبط!

أعمله بالطو

وحدث أن اشترى العقاد صديريًّا جميلًا من فلسطين، ورآه المازني فأُعجب به جدًّا، فقال للعقاد: إنت لازم تجيب لي صديري المرة الجاية، أعمله بالطو.

داس على طربوشي

ودخل المازني مرة مذعورًا داخل «دار الهلال» يسأل كل مَن يلقاه: ما فيش واحد طويل دخل هنا؟!

ولما سألوه عن سر لهفته في السؤال عن الرجل الطويل أجاب: أصله خلاني ماشي وداس على طربوشي.

ملاها مني

وأعطى ساعته لساعاتي «يملؤها» له، وبعد أن تسلمها اكتشف أنها ما زالت على حالها تُؤخر تارة، وتُقدم تارة أخرى، فقال المازني: الراجل أديت له الساعة يملاها، يظهر إنه ملاها مني.

نسخة

وأهدى مرةً نسخة من كتابه إلى أحد الأصدقاء، ووعده الصديق بقراءته، ثم مضت فترة طويلة والصديق يعتذر عن عدم قراءته، وقابله المازني ذات يوم، فسأله في جدٍّ بالغ: إنت كنت بتعوم في النيل امبارح؟

– ليه؟
– أصلي لقيت نسخة من كتابي في المية!

عشان العيل

وجاء مرة المازني إلى بعض أصدقائه فقال لهم فخورًا: تعرفوا النهاردة أنا حميت فلان من «علقة» كان راح يأكلها.

وتساءل الأصدقاء جميعًا في دهشة: ازاي؟

– أنا ماشي مع فلان واتشاكل مع واحد تاني، والراجل حلف لازم يضربه «علقة» لحد ما يموته.

– وبعدين؟

– وبعدين الراجل بص ناحيتي وقال: طيب حسيبك عشان خاطر العيل اللي معاك.

الأديب والإنسان

وهكذا كان المازني الإنسان، خفيف الظِّل، حلو النكتة، حاد السخرية مثل المازني الأديب، غير أن المازني الأديب لازمته مسحة من التشاؤم جعلته يقول في مقدمة كتابه «حصاد الهشيم»: ما مصير كل هذا الذي سودت به الورق وشغلت به المطابع، وصدعت به القراء؟ ... إنه كله سيَفنى ويُطوى بلا مراء، فقد قضى الحظ أن يكون عصرنا عصر تمهيد، وأن يشتغل أبناؤه بقطع هذه الجبال التي تسد الطريق، وتسوية الأرض لَمن يأتون من بعدهم.

ومَن الذي يذكر العمال الذين سووا الأرض ومهدوها ورصفوها؟ ... فلندَع الخلود إذن، ولنسأل: كم شبرًا مهدنا من الطريق؟

ولكن هل هذا كلام متشائم؟

أبدًا، إنه من خلال تشاؤمه يبدو متفائل النظرة إلى المستقبل واثقًا كل الوثوق من سعادة الأجيال المقبلة، فخورًا بالأشبار التي مهدها في الطريق الشاق الطويل نحو المستقبل الزاهر.

ويكفي المازني أنه مات بعد أن مهَّد شوطًا طويلًا، واستطاع بحق أن يصبح على رأس كتاب القصة الطويلة والقصيرة في بداية القرن العشرين، ويكفيه إنه مهَّد الطريق لغيره.

وصحيح أن المازني مات.

ولكن، بقي إنتاجه، وظلت البشرية وستظل، سعيدة بإنتاجه، مُقدرة للأميال الطويلة التي مهَّدها من الطريق.

كوكتيل ... من التاريخ

شفيق المصري

ضاق بالحياة وبالناس، فاعتزل العالم وانزوى وحده يجترُّ مصيره في صمت، ولم يلبَث أن ضاق بنفسه، فراح يهاجم نفسه بعنف!

رثاه أحد الكُتَّاب بعد موته فقال: «أخيرًا مات الرجل الضاحك، وانطبق الفمُ الذي لم يفارقه الابتسام.»

فكان يتحدث مبتسمًا، ويأكل مبتسمًا، وينام مبتسمًا، ويبكي مبتسمًا، وأغلب الظن أنه لقِي عزرائيل بنفس الروح التي كان يلقى بها الحياة.

ولم يكن هذا الرجل ... إلا حسين شفيق المصري، ولقد كان حسين شفيق المصري مدرسة في فن السخرية، سخِر من كل القِيَم التي كانت تسود عصره، سخر من كل الأوضاع، وسخر من الناس، وسخر من نفسه، وسخر من النظام، وسخر من القانون، وغالى أحيانًا في سخريته، فانقلبت إلى تهريج.

ولكنه كان، بالرغم من ذلك، أبرع مَن استخدم النكتة كسلاح، وأعظم من عالجها كفنٍّ.

سيبَوَيْه المصري

ولقد تألَّقت وتبلورت في حسين شفيق المصري روح مِصر على مر السنين ... فهو سيبويه المصري الذي كان يطوف الأسواق مُمتطيًا حمارًا يخطب في الناس ساخرًا بكافور، وهو الأسعد بن مماتي الذي ألَّف الفاشوش في حكم قراقوش، وهو ابن سَودون المصري الذي

أضحك الناس وأبكاهم أيام المماليك، وهو امتداد ليعقوب صنُّوع، وقبس من شُعلة النديم، ومزيج من البشري والعبد والبالي، وكل مَن سبقوه ... ولكن هذا الثائر الساخر سقط سقطة شنيعة لم يهوِ إليها أحد ... فكان من أعنف الذين هاجموا سعد زغلول، وكان ميدانه مجلة «الكشكول».

ولو أننا نظرنا إلى هذه السقطة من زاوية أخرى، لراعَنا شيءٌ غريب ... فهذا الثائر الساخر الذي اختار طريقًا مُعاديًا للشعب، قُدر له أن يكون الرجل الوحيد في مصر الذي يكتب هجومًا مُرًّا ضد سعد زغلول، ومع ذلك يقرؤه الناس، حتى أخلص رجال الوفد، وحتى أخلص شبابه حماسة وإيمانًا به ... وهنا تبرز عظَمة حسين شفيق المصري كفنانٍ.

ولقد كان سعد زغلول يتمتع وقتئذٍ بشعبية ساحقة ماحقة، حتى لقد قال البعض كانت إشارة واحدة من سعد، تكفي لإشعال نار الثورة، وإشارة أخرى تكفي لإخمادها، وكان سعد ساحر الشخصية عملاق الزعامة، كلماته أوامر وأوامره قوانين، وخُطبه أقدس من المعلقات السَّبع، وكانت أعظم الصحف انتشارًا تقتلها إشارة عن سعد، وأعظم الأفكار قوة تسحقها كلمة من سعد. وعندما اصطدم فن شفيق المصري بزعامة سعد زغلول، كان الصِّدام رهيبًا، ولكنه أثبت على أية حال أن الفن الأصيل أقوى من الزعامة، وأمضى سلاحًا من كل أسلحة الزعيم.

ففي الوقت الذي كانت فيه الجماهير تحتشد في فِناء بيت الأمة تستمع مشدوهةً إلى خطبة الزعيم ... كان كل فرد منهم يُخفي بين طيَّات ملابسه نسخة من مجلة «الكشكول» ليقرأ فيها، بعد الانتهاء من سماع خطبة الزعيم، «نُكَت» حسين شفيق المصري عن الزعيم نفسه.

ولكن مَن هو حسين شفيق المصري؟ ومن أين جاء هذا الفتى الطويل النحيل صاحب الملامح التركية ذو اللسان الطويل؟ أغرب شيء، أن حسين شفيق المصري ليس مصريًّا، وهي ظاهرة غريبة أن يكون أعظم اثنين كتبا اللغة العامية واستخدماها كما لم يحدث من قبل ولا من بعد، أغرب شيء أن يكون هذان الاثنان ليسا مصريَّين ... فأحدهما تونسيٌّ وهو محمود بيرم التونسي، والثاني تركيٌّ ... وهو حسين شفيق المصري.

ابن البلد

كان أبوه محمد بك نور نموذجًا للتركي المتعجرف المِتلاف، كان يملك عزبة في قليوب ... وعندما مات، كان قد فقد كل شيء تقريبًا ... الأرض، والقصر، والخيل ... وذهب إلى

القبر وكل حصيلته في اللغة العربية عدة كلمات لا تكفي لتكوين جملة مفيدة، وكانت أمه إقبال هانم جارية أُخذت ضمن السبايا في حرب المورة وبِيعت في مصر، واستقرت في قصر الأميرة أمينة هانم أم الخديوي عباس، ومن هذا الخليط اليوناني التركي، جاء حسين شفيق المصري ... أعظم ابن بلد مصري ظهر في النصف الأول من القرن العشرين.

ولقد كانت حواري الدرب الأحمر ومقاهيه وأسواقه والأزقة المتفرعة منه والشوارع الضيقة التي تصُب فيه هي وَحْي حسين شفيق المصري وإلهامه ... فهو صديق سيد المكوجي، وجليس عم أمين القهوجي، وجار حنفي الكُمساري، وحسنين العسكري، ومن هؤلاء الناس تزوَّد حسين شفيق المصري بثقافته الشعبية، ومن دواوين شِعر امرئ القيس، وطَرَفة، والأعشى، وجَرير، والفَرَزْدَق، والمُتَنَبِّي، وابن الرُّومي، والجَبَرْتي، وأبي العَلاء ... تزوَّد بثقافته العربية، ومن هاتين المدرستين استحدث حسين شفيق المصري فنَّه الخالد الرفيع.

وبينما كان يجلس في أول الليل في بار فقير في سوق الخُضار ويوزِّع الكئوس والنكات على الحاضرين، كان يقضي آخر الليل يجمع أوزان الشِّعر المهجورة بتكليف من أمير الشعراء أحمد شوقي.

وعلى هذا الازدواج، سيظل حسين شفيق المصري أبدًا ... فهو حُجة في اللغة العربية، وهو عالم في اللغة العامية، وهو من أسرة غنية، وفقير يتضوَّر جوعًا، وهو من أم يونانية، وأب تركي، وهو نفسه ابن بلد قاهري ... تربية أرصِفَة ومقاهٍ تعبَقُ برائحة الحشيش، وهو مُحرِّر بجريدة الجوائب التي كان يصدرها خليل مطران، ومُحرِّر بجريدة «مصر» وفي الوقت نفسه في مجلة «الشجاعة» و«الخلاعة» و«المسامير والسيف»، وهو مؤلِّف مسرحي كتب رواياتٍ جديدةً لمسرح نجيب الريحاني، وهو شاعر ماجن، متفرغ لكتابة الشِّعر «الحَلَمَنْتِيشي»، وهو يكتب ضد سعد زغلول في مجلة «الكشكول»، ويكتب مع سعد زغلول في مجلة «الصاعقة»، وهو يربح آلاف الجنيهات، ويموت وليس في جيبه مليم.

ولقد دخل حسين شفيق المصري التاريخ بمُشَعْلَقاته السبع ... على وزن المعلَّقات السبع ... وكانت أبرزها مشعلقته الشهيرة التي عارض بها معلَّقة طَرَفة بن العبد التي مطلعها:

لِـخَـولَـةَ أطـلالٌ بِـبُـرقَـةِ ثَـهـمَـدِ يَلوحُ كباقي الوَشمِ في ظاهِرِ اليَدِ

والذي لا شكَّ فيه أن حسين شفيق المصري كتب مشعلقاته ليس بغرض التقليد والمحاكاة وإضحاك الجماهير، ولكن هذه المشعلقة كانت تحمل رأيه في هذه القصائد التي أنفق الشعراء عمرهم في صياغتها ... استمع إليه يقول في مشعلقته الشهيرة:

لـزيـنـبَ دكـانٌ بـحـارة مـنـجـد
تـلـوحُ بـهـا أقـفـاصُ عَـيـشٍ مُـقـدَّد
وقـوفًـا بـهـا صـحـبـي عـلـى هـزارهـا
يـقـولـون: لا تـقـطـع هـزارك واقـعُـد
أنـا الـرجـل الـسـاهـي الـذي تـعـرفـونـه
حـويـطٌ، كـجِـن الـعَـطْـفـة الـمُـتـلـبِّـد
فـمـا لـي أرانـي وابـن عـمـيَ مُـصـطـفـى
مـتـى أدنُ مـنـهـا يـنـأَ عـنـهـا ويـبـعُـدِ
يـقـول وقـد ألـقـى الـرغـيـف وسـابـنـي
أَلَـسـت تـرى جُـوزْهـا عـويـس بـن أحـمـد
فـلـمـا تـنـاغـشـنـا الـغـداةَ وهـزَّرت
مـعـانـا، وأعـطـتـنـا بـارولا بـمـوعـد
رأت زوجـهـا يـدنـو فـغـطـت «بـزازهـا»
بـشـال طـويـل «كـالـمـلايـة» أسـود
وقالت: يا لهوي جتكو نيلة امشوا من هنا
أفندية ايه دُولْ؟ جوزي شايف دا شيء ردي
فـأقـبـل زوج الـبـنـت يـلـعـن أُمَّـهـا
ويـسـعـى إلـيـنـا «بـالـمـداس» الـمـهَـربـد
فلا خير في خبصٍ ترى الضرب بعده
ولا هـاجـمٍ يـأتـيـك بـعـد الـتـرصُّـد
ستُبدي لك العصيانُ ما كنت جاهلًا
ويـأتـيـك «بـالـمـركـوب» مَـن لـم تـهـدِّد

ومن قصائده التي سمَّاها «المشهورات» قصيدة نَظَمها على نهج قصيدة «ابن الخيَّاط» التي يقول فيها:

خُذا من صبا نجدٍ أمانًا لقلبه فقد كاد رياها يطير بلُبه

قال حسين شفيق المصري:

ولم ينهَهُ عنها الزمانُ ولا النَّوَى ولم يُلهِهِ عنَّا تَقَزْقيز لِبِّه
فبات يُناجي النجم في طول ليله ويشكو إلى الحِيطان شدة غُلبه
وهل يشتكي يا ناس مدقع فقره وقد جاع يشكو من فداحة حبه
وقد تعبت عُزَّاله في غرامه وأتعب أصحابَ الفلوس بنصبه
ويا ويحه إذ يصبغ الشَّعر صبغةً تلغمطه حتى تنادي بشَيبه
ومَن يكُ ذا شيب ويصبغْ فإنه إذا قال صدقًا زيَّفوه لكِذبه

ولقد ظلَّ حسين شفيق المصري يتدحرج طول حياته ويتقلَّب في مهنٍ كثيرة؛ من كاتب محامٍ، إلى مصحِّح في الجرائد، إلى زبون دائم أحيانًا في مقاهي القاهرة وعلى أرصفتها الشهيرة، ومن خلال هذه المهن الغريبة استطاع العبقري أن يرى الحياة كما لم يرَها أحد من قبل ... فقد كانت له مهنة واحدة غير رسمية، هي مراقبة الناس وملاحظة عاداتهم الرديئة، واستطاع أن يقدم للأدب الشعبي المصري شخصية خالدة «لابن البلد» الجاهل المتعافي «الحاج درويش» و«الست المصرية» المشاكسة المشاغبة «أم إسماعيل»، وكان كتابه «الحاج درويش، والست أم إسماعيل» هو خير كُتبه وأكثرها صوتًا وحرارة وفهمًا بطبيعة الروح المصرية على الإطلاق.

وكان حسين شفيق المصري عالمًا باللهجات، لهجة الصعيد ولهجة الفيوم، ولهجة المنوفية، ولهجة الإسكندرية، ولم يقتصر علمه على معرفة اللهجات المحلية المنتشرة في أقاليم مصر الكثيرة ... بل تعدتها إلى خارج الحدود ... وقد هب فجأة ذات مرة لينقد بأسلوبه الساخر المرير انتشار اللغة الفرنسية بين أهل لبنان العرب ... فكتب خطابًا من لبناني إلى آخر «مونامي مجاعص ... بعد السلام ... أعرفك ما مون فرير أن الهيجين تبعي تربيان ... وفقط عندي جراند زعل من حكم الفرنساوي ... وبيكون بعلمك أني دومان رايح شان أشوف حال المون بير وأكتب لك ليتر بالإيروبلان.

ما قَلَّ ... ودلَّ

وخاض حسين شفيق المصري ميدان الزجل، وما قلَّ ودلَّ هو خير عنوان يمكن أن نطلقه على أزجاله ... فقد كان مثلًا في هذا الميدان، لسبب لا ندريه ... والملاحظة الغريبة أنه كان يفر إلى ميدان الزجل كلما اشتد الإرهاب في مصر واشتدت قبضة الرقابة على الصحف الوطنية. وبرغم أنه كان ضد سعد زغلول وكان ضد الوفد المصري بحكم أكل العيش، إلا أنه كان في الحقيقة وطنيًّا وثائرًا.

ذلك أنك لا تستطيع أن تكون ساخرًا إلا وأن تكون ثائرًا في الوقت نفسه ... لأن السخرية لون من ألوان الثورة.

يقول حسين شفيق المصري في زجل رائع:

أول ما نبدي القول نصلي على النبي
نبينا محمد جانا بالإسلام
يقول أبو زعيزع وله قول صادق
براهينه ظاهرة والأدلة تمام
يابوزيد أنا بوي دياب بن غانم
يناوش العدو وما يتركوش ينام
لحد ما نمشي من البلد دي ونرحل
دي عيشتنا فيها يابوزيد حرام
تعالَ نروح من مصر نقصد تونس
نشوف فيها أقوام غير دي الأقوام
دي مصر يا بويه بلاد العجايب
وخيراتها للأرمن والأروام
وللإنجليز رُخرِين، ولكن خايف
أروح بكلامي شخة في حمام.

ولقد عاش حسين شفيق المصري حياة أقرب ما تكون إلى حياة أبي نواس ... أعزب لم يتزوج ... سِكير لا يُفيق ... مُبذر أنفق نقوده وأنفق صحته وأنفق أيامه فيما لا يفيد، ولو أنه تفرغ للمسرح ... لكان لدينا الآن تراث مسرحي كوميدي من أعظم طراز ... ولو أنه ألقى بنفسه في خضم الثورة ... لاستطاع أن يصنع مع بيرم التونسي انقلابًا في مصر،

ولاستطاعا معًا أن يصوغا الحياة في مصر كما يحلم بها الثوار ... ولكنه لم يتفرغ لشيء ولم يهدأ ولم يستقر ... وظل يتدرج من أعلى إلى أسفل حتى وصل إلى القاع، ولكن فنَّه الأصيل، رغم الضياع، كان يشده دائمًا إلى الحياة التي تموج من حوله ... ينقد مظاهرها المختلفة نقد فنانٍ أصيل.

وفي نهاية أيامه رفع هراوة ضخمة وهوى بها على رأس الحكومة التي كانت قائمة وقتذاك.

إن الفنان حسين شفيق المصري ينقدها وينقد رجالها ونظمها وتقاليدها ... فيبتكر شخصية الشاويش شعلان عبد الموجود.

الشاويش شعلان

ومن خلال المسكين شعلان ... انصبَّت هراوات شفيق المصري على كل ما في الحياة من تناقضات بشعة وقيم زائفة. ويكتب شفيق المصري على لسان الشاويش شعلان محضر التحقيق الحكومي.

> «في تاريخه أدناه وأعلاه ... أنا الشاويش شعلان عبد الموجود، شاويش آه يا ناري ... في الساعة كذا وأنا جاعد في الجسم حضر جدامي جدع طويل عريض زي الشحط متهم في جناية خطف فرخة ... وبعدين سألناه عن اسمه وعن رسمه وعملنا المحضر اللازم.»

ومن خلال الأسئلة والأجوبة تبدو براعة شفيق المصري في كشف عورات النظام الاجتماعي الذي كان يرزح تحت عبئه الشعب ... وكذلك تبرز أصالة شفيق كفنان. وعبقريته في الغوص إلى أعماق المأساة التي كانت تعيش فيها مصر.

ومن خلال «محكمتنا العُرفية» يحمل شفيق المصري حملة لا هوادة فيها على كل ما هو بشع وحقير في حياة الناس ... إنه يهاجم الشركات في عنف ... ويهاجم النظام الرأسمالي كله بلا رحمة ... وبطريقة فنية لا تغفل الحقائق العلمية — التي تحول المجتمع الرأسمالي إلى معتقل كبير للشعب.

ويهاجم شفيق المصري الحرب ... ويهاجم الاستغلال والاستبداد والبطالة والخوف والجهل.

ولم يكتفِ شفيق المصري بنقل المجتمع وهدمه عن طريق القلم ... بل أنشب فيه لسانه، وكأنما وجد ميدانه الحقيقي هنا، فاكتفى به في آخر أيام حياته؛ وأطلق مئات النكات تنهش في كيان المجتمع وتنز فيه كالسوس، وأصبح يرتاد المقاهي منذ أن تعطل وشاخ وفقد بصره، وبدا الرجل العجوز وكأنه فقد كل أسلحته في الحياة إلا سلاح النكتة يشهرها على أعدائه، فراح يهاجم أدعياء الأدب والفن، ثم راح يهاجم الأدباء أنفسهم، ثم انبرى يهاجم الأحبة والأصدقاء، واحتمل الناس دعاباته أول الأمر، ثم ضاقوا بها وضاقوا به، ويبدو أنه ضاق هو الآخر بالناس وبالحياة، فاعتزل العالم، وانزوى وحده يجترُّ مصيره في صمت، ولم يلبث أن ضاق بنفسه، فراح يهاجم نفسه بعنف.

الابتسامة الأخيرة

ولعلَّه وهو في عزلته التي فرضها على نفسه تذكَّر تلك الأيام البعيدة من حياته ... عندما كان سعد حيًّا، والثورة تجري في البلاد وتفور، والشعب يتدفق كالسيل، وربما رن في أذنيه هتاف الجماهير يملأ الجو، وصيحات الجموع تتصاعد إلى السماء، وربما تذكَّر الجانب الذي اختاره بحكم الظروف، ووقف فيه ضد الشعب وضد سعد، وربما ضاق شفيق المصري بنفسه من أجل هذا السبب، وربما كفَّرت المحنة عن ذنب الرجل، وربما مات مستريحًا.

نعم، ربما حدث ذلك، وربما كان هذا الذي ذكرناه مجرد وَهْم جال بخاطرنا ولم يخطر على ذهن شفيق المصري أبدًا.

ولكن الشيء المؤكد والشيء الثابت ... هو أن شفيق المصري مات مبتسمًا. فقد التقى به أحد أصدقائه قبل وفاته بيوم واحد، وكان قد فقد بصره تمامًا وأصبح أعمى، وتطوع شاب من أقربائه لمرافقته، ولما سأله الصديق عن الشاب الذي يرافقه ... أجاب شفيق: دا واحد ساحبنا.

وفي اليوم التالي ... سحبه عزرائيل إلى الآخِرة.

أنا شخصيًّا أرجو أن يكون قد سحبه إلى الجنة.

النكتة للنكتة!

محمد البابلي

وكان «مسيو كل شيء» المصري اسمه «محمد البابلي» ابن عبده بك البابلي شيخ تُجار الجواهر في ذلك العصر. وكأنما أفادته مهنة أبيه في فنِّه، فكانت نكاته وغمزاته وقفشاته أشبه بسبائك رشيقة أنيقة لامعة.

أنا حُر في شنَبي

المركب الكبير يعبُر البحر إلى بورسعيد، على ظهر المركب سُفراء في طريقهم إلى الشرق الأقصى، وعلماء آثار يبحثون عن حضارات عريقة بين أطلال الشرق، وأثرياء يطوفون حول الأرض، ورجال أعمال، ورجال مخابرات. ورجال فقط. ونساء أنيقات، ورشيقات، ومعطَّرات، ولكن رجلًا واحدًا فقط بين هؤلاء جميعًا، كان يثير الغيظ ويثير الإعجاب معًا، وكان هذا الرجل قومسيونجي صغير، وكان اسمه «كل شيء» أو هكذا أطلق عليه الكاتب العالمي سمرست موم.

«بتاع كله!»

وكان مسيو «كل شيء» يعرف كل شيء، ويحترف كل شيء، فهو خبير في لؤلؤ البحر الأحمر، وهو عالِم في الرياضيات. وأستاذ في عِلم طبقات الأرض، ولاعب كرة قدم، وممثل سينما. وخطيب، وقومسيونجي شاطر، وهو سائح ممتاز، يعرف كل شوارع المدن الشهيرة، ويعرف مطاعمها، وملاهيها ومفاتنها، وهو مغامر، له في عالم النساء تاريخ!

وهو أيضًا أديب ونديم وظريف يعرف كل النكات التي تضحك لها جميع أُمم الأرض.

وهذا المسيو كل شيء الذي رسمه «موم» ببراعة، كان له في مصر نظير، رجل من المحلة الكبرى، كان ضابطًا في البوليس، وكابتن في كرة القدم، وعازفًا على العود، وطباخًا ماهرًا، وثريًّا يُضارب في البورصة، ومقامرًا أنفق معظم لياليه وأكثر ثروته على المائدة الخضراء، ومُزارعًا يملك ضيعة وقصرًا في الريف، وكان ظريفًا لاذع النكتة، أضحك الناس وأدهشهم وسخر منهم، ثم تبخرت ثروته فسخر من الزمان ومن نفسه.

وكان «مسيو كل شيء» المصري … اسمه محمد البابلي ابن عبده بك البابلي شيخ تُجار الجواهر في ذلك العصر. وكأنما أفادته مهنة أبيه في فنه، فكانت نكاته وغمزاته وقفشاته أشبه بالسبائك، رشيقة أنيقة لامعة. ولم تكن سخريته نتيجة سخط، فهو ثري أمثل، وهو يحيا حياة الأمراء، وهو ينفق الألوف، ويُبعثر المئات على موائد القمار، وعلى الأصدقاء، وكانت له شِلة تجتمع كل مساء في ركن خاص في حلوان، وكان البابلي يعد طعام الشلة بنفسه، فقد كان كما ذكرت من قبل … يجيد طهي الطعام. وكان من بين أفراد الشلة … عبد العزيز البشري وحافظ عوض ووحيد الأيوبي، ومحمد المويلحي صاحب كتاب عيسى بن هشام، وكانوا جميعًا يتمتعون بمكانة في المجتمع.

النكتة … للنكتة!

ولقد كان من الطبيعي أن تكون سخرية البابلي — من أجل هذه الظروف وبسببها — سخرية هادئة، فيها فن أكثر مما فيها من مرارة، ولو كان النقد تناول النكتة على أنها عمل أدبي يؤدي دورًا في الحياة لقلنا إن البابلي كان من أنصار النكتة للنكتة، بعكس شفيق المصري مثلًا، الذي كان يُعبِّر بنكاته عن وجهة نظره في الحياة. ولهذا السبب أيضًا خلت كل نكات محمد البابلي (كتاب محمد البابلي لمحمد الصباحي) من كل ما يمس النظام الاجتماعي القائم حينذاك، أو النظام السياسي، فلم تكن النكتة عنده سلاحًا، كانت ترفًا، يُرفِّه بها عن نفسه، ويُرفه بها عن الآخرين، وكان آخر الأمر صورة تعكس حياته المطمئنة الوادعة!

وهناك نكتة شهيرة لمحمد البابلي تُصور اتجاهه هذا بوضوح، وهي نكتة قيلت في مناسبة هي أقرب إلى المأساة منها إلى الملهاة، ومع ذلك لم تدرك موهبته الناعمة عمق الموقف ولا مغزاه، فمست نكتته السطح ولم تنفذ إلى الأعماق.

كان له تابع يُدعى سُنقُر، وكانت علاقته بالبابلي مشبوهة، فقد كان يُدبر له أمر الليالي الحمراء، ويبحث له في كل يوم عن صيد ثمين، وباختصار، كان يقوم للبابلي بنفس الدور الذي كان يقوم به بوللي للملك السابق فاروق.

وجاءه جماعة من الصحاب في المساء وجلسوا يلعبون ويشربون، ثم قال أحدهم مندهشًا: تعرف يا محمد بك، إحنا اكتشفنا إمبارح سر خطير. ويستفسر محمد البابلي من صاحبه عن السر الخطير، فيجيبه ضاحكًا والدهشة لم تفارقه بعد: امبارح بس عرفنا أن سنقر يحفظ القرآن، كان معانا في المأتم وبعدين الفِقي غلط فكشفه وصحح الآية.

حكاية كما قلت تُصور مأساة، رجل يحفظ القرآن تدفعه الظروف وتجبره على احتراف مهنة وضيعة، كيف حدث هذا، ما هي الظروف التي أدت بالمقدمات إلى غير النتائج التي كانت متوقعة؟ أي مأساة عنيفة هي التي أدت برجل يحفظ القرآن إلى أن يعمل قوادًا لمحمد البابلي.

أسئلة لم تخطر ببال البابلي على الإطلاق، ولكن المفارقة تهزه فيقول نكتة، نكتة رشيقة وأنيقة ولامعة ... ليس إلا، نكتة رجل ليس من طبقة سنقر، بل لعله يزدريها ويحتقرها.

استمع إلى محمد البابلي يُعلق على الموقف بنكتة: لازم الفقي كان بيقرأ في سورة النساء.

وعلى هذا الطراز تأتي نكت البابلي كلها. نكت خفيفة سريعة تمليها المناسبة، عمادها مقدرة فائقة عند البابلي على التلاعب بالألفاظ، ولكنها لا تهتم بالمضمون ولا تُعنى به.

كان يلعب الطاولة مرة مع صديق، فيلعب لعبة لم تعجب خصمه، فيسخر منه قائلًا: بقى دي لعبة يا سي بابلي، أُمال إيه الفرق بينك وبين الحمار؟

ويرد البابلي على الفور: ما فيش فرق بيني وبين الحمار غير الترابيزة.

ويجلس في بار بالعتبة، وعلى مقربة منه يجلس رجل رث الثياب زَرِيُّ الهيئة، يعب الخمر بشراهة، فيصيح فيه البابلي: يا راجل ارحم نفسك.

ويقول الرجل وهو نشوان: أرحم نفسي إيه يا بيه؟ ما تشوف لونها ... ياقوتي.

ويرد البابلي على الفور: أيوة يا خويا، النهاردة ياقوتي، وبكره يا ... قُوتي (من القوت).

مهارة لفظية ليس أكثر ولا أقل، وبراعة في استخدام التورية بلا تكلف ولا عناء.

ويعهد إليه والده وهو شاب بقطعة أرض ليستغلها بنفسه، ولكنه يسيء استغلالها، فيطلب إليه الوالد أن يترك الأرض، وفي مناقشة عاصفة يثور الوالد على محمد البابلي: انت مش نافع، انت مش بتاع شغل، انت بتاع سهرات بس وبتاع لف ودوران. الأرض دي بتاعتي ولازم تسيبها أو أطردك منها.

ويسكت محمد البابلي ويعبث بشاربه في حركة عصبية ... ويثور الوالد ويصرخ في وجهه مؤنبًا: مش عيب واقف تلعب في شنبك قدامي.

ويجيب محمد البابلي في ضيق: وهو بتاعك راخر؟

ويضحك الوالد حتى يقع على الأرض، ويتركه يعبث في الشارب، ويعبث في الأرض.

ويضايقه رجل أُحيل على المعاش، يضايقه بزيارته، ومرافقته، والبابلي يضيق بصداقة الرجل المفروضة عليه فرضًا ... ولكن حياءه يمنعه من مصارحة الرجل، ثم ينتهز فرصة حتى يلتقي بصاحب مطبعة ويكلفه أن يطبع له بطاقة باسمه، ويسأله صاحب المطبعة: نكتب الاسم، محمد عبده البابلي، أو محمد البابلي بس؟

ويجيبه البابلي وصاحبه الثقيل يقف بجواره: لا اكتب محمد المعاش.

ويسأله الرجل في دهشة: محمد المعاش؟

ويجيب البابلي في هدوء: أيوة، ما هو الراجل دا (ويشير إلى صاحبه) حالوه عليَّ ... ويفهم الرجل الثقيل أخيرًا، فيذهب إلى غير رجعة!

وكان لمحمد البابلي ولدٌ يعمل موظفًا في بلدية المحلة، وكان البابلي يمنحه خمسة عشر جنيهًا كل شهر فوق مرتبه، ولكنه لم يكن يكتفي بما يأخذه، بل كان دائم الإلحاح على والده في طلب النقود.

وضاق البابلي بطلبات ابنه، فصرخ في وجهه ذات يوم غاضبًا: انت بتودي الفلوس فين؟

– فلوس إيه، هيه دي فلوس؟

– كده، طيب اسمع أما أقولك، تبادلني، يعني انت تاخد مركزي وأنا آخد مركزك، وتخلصني م الهم اللي أنا فيه.

وأجاب الابن في سرور: مستعد.

– مستعد تخلصني م الهم اللي أنا فيه؟
– يعني أتنازلك عن الأرض، وعن الفلوس؟
– مستعد.
– بس على شرط، أتنازلك كمان عن أمك.

ويفاجئه صديق وهو يدخن في رمضان، فيصافحه ويجلس إلى جواره، ثم يحاول أن يجاذبه أطراف الحديث، ولكن البابلي يلتزم الصمت، ثم تتحرك شفتاه تترنمان بكلمات مبهمة، فيسأله الصديق: الله! إنت بتعمل إيه؟

ويجيبه البابلي: بقرأ قرآن!
– قرآن! وانت فاطر؟
– مانا بقرأ آية ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

ويعيش محمد البابلي حياة بهيجة؛ سهرات، وحفلات، ومآدب، وأصدقاء، ومضاربات في البورصة، وتريقة على عباد الله، ثم يعتزل الوظيفة ويتفرغ لممارسة الحياة. ويلتقي به صديق، فيسأله في إشفاق: انت سبت البوليس؟

ويضحك البابلي وهو يقول: لا ... البوليس أفرج عني.

وتنتهي به حياة اللهو إلى الإفلاس. فيعيش بقية حياته في قلق، ولكن النكتة لم تفارقه أبدًا.

يسأله صديق: انت عدلست (نسبة إلى عدلي باشا) ولا وفدست (نسبة إلى الوفد).

فيجيب البابلي: أنا فلست.

وكان هذا في حقيقة الأمر هو موقف محمد البابلي من الحياة، عدم الارتباط بشيء إلا بحياته الخاصة، وبمزاجه الخاص، فلما طحنته الحياة، ذاب في مأساته الخاصة.

يسأله صديق آخر عن أحواله فيخبره بما آل إليه حاله، فيسأله في إشفاق: طيب والطين (الأرض)؟

فيجيبه في حزنٍ حقيقي: شِلته.

ويستمع إلى سي عبده الحامولي يغني «أهل السماح والمِلاح فين أراضيهم»، فيتنهد البابلي في حسرة ويقول: في البنك العقاري.

وكان البابلي قد رهن أراضيه في البنك العقاري.

ويقضي البابلي آخر أيام حياته فقيرًا لا يملك شيئًا، البنك استولى على الأرض، وضاع في اللهو ما كان معه من نقود، والخمر تبتلع النَّزر اليسير الذي كان قد تبقَّى، ويهجره أغلب أصدقائه، ويتحاشاه حتى أقرب المقربين إليه، ويفقد كل شيء. حتى تابِعه الذليل سُنقُر مات! ويمر عليه متسول يسأل شيئًا لله، فيجيبه في ثورة: الله، ما خد كل حاجة، حتى سُنقر.

ثم يموت محمد البابلي، وتموت معه كل نكاته، لأن نكاته لم تكن من النوع الذي يعيش؛ إذ لم يكن البابلي يستهدف من ورائها شيئًا إلا المتعة والإضحاك. ورغم اضطراب الأحوال السياسية والاجتماعية في زمانه، ورغم وفورة المضحكات المبكيات حينئذٍ، فإن محمد البابلي لم يستخدم موهبته أبدًا في «جلد» النظام القائم وأربابه، ربما لأنه كان أحد المستفيدين من قيام النظام بكل متناقضاته وأخطائه، وحتى بعد أن حطمته المأساة وأفلس ظل صديقًا للنظام، ولم يستخدم موهبته أبدًا في عدائه.

لم يرتبط محمد البابلي بشيء، غير شلته. لذلك لم يُعنَ بالشعب؛ لأنه لم يحس بوجوده. وكان الشعب عنده، وفي أعظم صوره، خدم الملاهي، والفلاحين في الضيعة، وحراس قصره، وسُنقُر الذي صحح الآية للمقرئ، لأنه كان يقرأ من سورة النساء!

على أية حال، لقد ذهب البابلي بعد أن أضحك أبناء طبقة كان البابلي ينتمي إليها ... طبقة أبناء الذوات. ولهذا السبب لم يحفظ الشعب نكاته، ولم يرددها من بعده ... فماتت. أخذها الله أيضًا كما أخذ أرضه وأمواله وأصدقاءه، وكما أخذ تابعه الذليل، سُنقُر!

لعنة الظروف!

د. محجوب ثابت

وعاش محجوب ثابت يُصارع هؤلاء، ولكن أحدًا لم يصارعه، بل اتفقوا جميعًا على حُبِّه، واتفقوا على شيء آخر كان يغيظ الرجل ويحنقه؛ أن يضعوه في المكان اللائق ... أن يظل رجلًا هازلًا يضحكون منه، ويضحكون عليه.

كان ثريًّا، وكان نائبًا، وكان سياسيًّا، وكان كاتبًا، وكان زعيمًا للعمال، وكان زميلًا وأستاذًا للعظماء والزعماء والوزراء، وكان صديقًا لأنبغ وأشهر وأعظم أبناء عصره، وكان ظريفًا، ابن نكتة، تجلس إليه فلا تمله، وتسمعه فلا تزهد حديثه، عاش حياة طويلة عريضة، وخرج منها بكل شيء إلا الوزارة ... والزواج.

كان يرغب في الزواج، وحاول مرتين، وعدَل، عدل في المرة الأولى عن إشفاق، وفي الثانية عن فشلٍ.

كان يدرس في سويسرا، وكانت له زميلة مليحة روسية شابة من النبلاء، بيضاء كالحليب، في عينيها زُرقة المحيط، وفي شَعرها صفار الذهب ... وأحبها وأحبته ... وطلبت إليه أن يتزوجها فأمهلها أيامًا يدبر فيها أمره. وذهب الرجل الحائر يستشير صديقه مراد سيد أحمد — وهو الذي سيصبح فيما بعد وزيرًا للمعارف في مصر — فينهاه عن هذا الزواج، خشية أن تفسره العامة في مصر تفسيرًا سيئًا؛ إذ كيف للوطني المجاهد أن يتزوجَ أجنبية؟!

وفعلًا هجر الروسية النبيلة وفرَّ إلى باريس.

وكما كان صديقه السبب في عدم زواجه في المرة الأولى، كذلك كان السببَ في المرة الثانية صديقٌ آخر، فبعد ربع قرن، طويلًا فكَّر في الزواج، ثم فوجئ وهو يقطع خطوته الأولى نحو تحقيقه بصديق يتزوج من التي كان قد اختارها زوجةً له، فأصابته المفاجأة بعُقدة من الزواج، فأقسم ألا يتزوج حتى يموت، وفعلًا كان!

حلم لم يتحقق

أمَّا الوزارة فقد كان يتلهف عليها ويترقبها، وكان يرى أنه أحقُّ الناس بها، وكان يؤمِّل أن يستَوزِره الوفد، ولكن الوفد لم يفعل، فخاصمه وهاجمه طول حياته، وحقد على زعمائه وأعضائه ... وانتظر أن يحقق محمد محمود أُمنيته الكبرى، وفعلًا، استدعاه محمد محمود عام ١٩٢٨م عندما أصبح رئيسًا لوزارة القبضة الحديدية، وتوقع الرجل أن يُسند إليه محمد محمود الوزارة، فحمل معه كل مشاريعه وكل برامجه، وذهب إليه، ولكنه فوجئ بمحمد محمود يعرض عليه مرافقته في رحلته إلى الأقاليم ... وكتم الرجل غيظه وسافر معه، مؤمِّلًا أن يحقق بُغيته بعد الرحلة، ولكن شيئًا من ذلك لم يحدث، فهاجم محمد محمود بشدة وبعنف، وخاصمه حتى مات!

بسمارك أفريقيا

واعتزل الأحزاب وهاجمها، ورأى فيها شرًّا وبلاءً وخطرًا، وهاجم كل الزعماء وحمل عليهم، ولكن موقفه مع صدقي كان يختلف عن ذلك؛ لأن صدقي الذكي أراد أن يمسك هذا اللسان عن مهاجمته، فانتهز فرصة توليه الحكم عام ١٩٣٠م، فأنعم عليه بمنصب كبير أطباء الجامعة ... وفرح الرجل بالمنصب فرحًا كبيرًا، وتحركت مواهبه تمدح صدقي وتُشِيد به، حتى لقَّبه بـ «كليمونصر» مصر، و«بسمارك» أفريقيا، وحتى مدح دستوره — دستور عام ١٩٣٠م — ووصفه بأنه خيرٌ ألفَ مرة من دستور ١٩٢٣م!

ولم يكن مما يُشرف إنسانًا في ذلك العصر أن يمدح صدقي ويُشِيد بمزاياه ... فما بالك إذا كان هذا الإنسان وطنيًّا بحقٍّ، أبلى بلاء حسنًا في الثورة، وادَّعى زعامة العمال الذين سَلَّط عليهم صدقي هراوته، ثم رصاصه، ثم دفنهم وهم أحياء؟!

صورة للعصر

ولكن ... هكذا كان الدكتور محجوب ثابت، أحد أبناء الجيل المضطرب الحائر الذي سبق ثورة ١٩١٩م وأعقبها، بل كان محجوب ثابت هو ممثِّل هذا الجيل بجدارة، وصورة حية لروح العصر!

كان محجوب ثابت إذن مضطربًا مُشوَّشًا كالعصر الذي عاش فيه، احترف الطب وجمع ثروة من ورائه، ولكنه يهجر عيادته ليجمع تبرعات للوفد، ثم ينتظر الجزاء فلا يجد إلا الإهمال والإعراض، فيثور على الوفد، ويمدح حزب الأحرار، ولكن حزب الأحرار يعامله كرجل هازل، يحبه نعم، ولكن بقدر لا يرتفع بالرجل إلى منصب الوزارة، فيخاصم الحزب ويحمل عليه، ثم يُنصِّب نفسه زعيمًا للعُمال، فإذا جاء صدقي إلى الحكم عام ١٩٣٠م انضم إليه يمدحه ويدعوه له، بينما صدقي وجنوده يسفكون دم العمال على قارعة الطريق.

وعاش محجوب ثابت حياته يُصارع هؤلاء وهؤلاء ... ولكن أحدًا لم يصارعه، بل اتفقوا جميعًا على حُبِّه، واتفقوا على شيء آخر كان يغيظ الرجل ويحنقه؛ أن يضعوه في المكان اللائق، وكان مكانه اللائق ... أن يظل رجلًا هازلًا يضحكون منه، ويضحكون عليه.

حدث مرة أن رشَّح الدكتور محجوب ثابت نفسه ضد مُرشح الوفد في إحدى دوائر الإسكندرية، وحاربه الوفد حربًا لا هوادة فيها، واستطاع أن ينتصر في النهاية، ويدخل مجلس النواب نائبًا ... رغم أنف سعد.

وتصور أنت نائبًا يدخل مجلس النواب رغم أنف سعد، وهو الذي لو رشح «حجرًا لانتخبناه»، وتصور أي خطر وأي قدر يكون لهذا الذي تحدى «الأمة وإرادة الأمة» ... ولكن محجوب ثابت كان شيئًا آخر ... حتى في نظر سعد ... ولذلك نرى سعدًا لا يغضب منه ولا يحقد عليه، بل يتواطأ مع مجلس النواب ليسخر منه، فيُوعِز إلى أعضاء لجنة الطعون بأن يتباطئوا في تقديم تقرير الطعن المقدم ضد محجوب ثابت لتظل نيابة الدكتور معلَّقة.

ويتردد محجوب ثابت على مكتب سعد زغلول ألف مرة، يطالبه بالفصل في الطعن المقدم ضده، ويعِد سعد، ثم يُخلف، ثم قرر أخيرًا أن ينظر المجلس في الطعن.

وكلف سعدٌ النقراشي بتدبير مسرحية لمداعبة الدكتور محجوب ثابت، فيتكلم حمد الباسل مدافعًا عن صحة نيابة الدكتور، ويخطب علي أيوب معارضًا في انتخابه.

الشَرْبات يا محجوب!

وينعقد المجلس، ويهُب علي أيوب معارضًا صحة نيابة الدكتور محجوب ثابت، ويعلن أن لجنة الطعون وقعت في خطأ حسابي — غير مقصود — مما أدى بها إلى رفض الطعن، ويطلب في حزم إعادة النظر في الطعن، ورفض نيابة الدكتور محجوب ثابت.

ويثور الدكتور محجوب، وسعد على المنصة يبتسم ويضحك، ويطلب من علي أيوب أن يعيد الكلام بتُؤَدة حتى يتمكن النواب من سماعه ودراسته.

ويعيد علي أيوب الكلام، والدكتور يستمع إليه وهو جالس مكانه كالمأخوذ، والنُّقراشي يجلس خلفه متظاهرًا بالأسف.

ويطلب سعد من محجوب ثابت أن يرد على كلام علي أيوب، فيطلب التأجيل، ولكنْ سعد يرفض التأجيل، ويثور الدكتور على سعد، ثم يتوسَّل، ولكنْ سعد يتجاهل ثورته ويرفض توسَّله، ويطلب إلى الدكتور ماهر أن يتكلم.

وينهض أحمد ماهر ويبدأ الكلام، فإذا به يحمل على زميله علي أيوب ويفند كلامه، ثم أعلن رفض الطعن وصحة عضوية محجوب ثابت، ويهجم النواب على محجوب ويحملوه على الأعناق إلى بوفيه المجلس، ويهتف أحدهم ويردد الآخرون الهتاف «نريد الشربات يا محجوب» ومحجوب يرفع يديه — كما يفعل الزعماء — ويحييهم، وسعد يشهد المنظر عن كثب وهو يضحك من الأعماق.

وهذه الحادثة تكفي لتفسير موقف الأحزاب والزعماء وكبار الشخصيات من محجوب ثابت ... إنه رجل ظريف ... لا أكثر ولا أقل!

ميراث قومي

إن الكاتب الساخر عبد العزيز البِشْري يكتب عنه فيقول:

> «لا شك أن الدكتور ثابت، يُعدُّ بحق من ميراثنا القومي، ولو جرى عليه القدر لكان لا بد للأمة من محجوب ثابت بأية طريقة، إنه في ميراثنا القومي لا يقل عن آثار سقارة وجامع السلطان حسن ومقابر الخلفاء، ولقد أصبح على الزمان جزءًا من تقاليدنا الأهلية كحلقة المحمل ووفاء النيل وشم النسيم.»

ثم يتعرَّض لنشاطه السياسي فيقول:

«والدكتور في المصريين كإنجلترا في الأمم، كلٌّ منهما يرى عليه للآخرين تبعات لا تنقضي، فإذا كان الكلام في النيل، تولى الدكتور الكلام وملكه على جمهرة المهندسين، وإذا كانت الثورة، تَصدَّر الدكتور لجنة الوفد المركزية، وكلما انتشرت في البلد مظاهرة كان قائدَها، وكلما ساروا بجنازة كان على رأس المشيعين، فإذا كان اجتماع في الأزهر كان الدكتور فارسَه الذي لا يُشق له غبار، وإذا كانت مشاكل للعُمال أبى الدكتور ألا أن ينفرد بها من دون الناس جميعًا، كان نقيبًا لعُمال العنابر ولفافي السجائر وسواقي الأوتوموبيلات وشيالي المحطات وخدم الفنادق والقهوات، وجميع الطوائف من كل بدَّال وبقَّال وجزار.

وفي الحق فإن الدكتور يرى نفسه مسئولًا عن كل ما في البلد من هابط وصاعد، وقائم وقاعد، وغادٍ ورائح، وسائح وبارح، ودارج على متن الغبراء، وطائر في جو السماء، فإذا كانت هناك منطقة خارجة عن اختصاص الدكتور فهي عيادته فقط!

وإني أقترح على الحكومة أن تصدر قرارًا ينزع ملكيته وإضافته إلى المنافع العامة، ولعلَّها بعد العمر الطويل تجعله من نصيب دار الآثار!»

انتهى كلام البِشْري.

وهو في اعتقادي صورة عبقرية صوَّرها قلم البشري لمحجوب ثابت ... وأغلب ظنِّي أن محجوب ثابت ثار على هذا الكلام، فقد كان يكره المداعبة حين تجرح، وكانت أكثر الدعابات الجارحة تأتيه من شوقي.

كان شوقي يعرف نقطة ضعفه، فكان يحمل إليه دائمًا أنباء لا تسُره «كم أنت ضائع الحق يا محجوب، إن صاحبك النقراشي اعترض على تعيينك وزيرًا للصحة، ولم يهدأ له بالٌ إلا بعد أن حذف اسمك من قائمة الوزارة» ... ويصدِّق الدكتور محجوب الدعابة، وينطلق يسب النقراشي، ثم يدرك بعد أيام أن شوقي خدعه، وأنه كان ضحية مؤامرة مدبرة ... ولكن إدراكه أن شوقي يخدعه كان لا يمنعه من أن يصدِّق نفس الرواية إذا عاد شوقي وقصَّها عليه، وقد ظلَّ شوقي أكثر من خمسة أعوام طويلة يحمل إلى الدكتور محجوب ثابت نبأ اختياره وزيرًا للصحة، ثم اعتراض بعض الوزراء على هذا التعيين ... وظل محجوب خلال هذه السنوات الطويلة يُصدق شوقي في كل مرة، ثم يكتشف عقب كل مرة أنها كانت خدعة، وأنه كان ضحية مؤامرة مدبرة.

هجاء شوقي

وكان محجوب يغضب أيامًا ثم تصفو نفسه، فيعود إلى شوقي، ولكن شوقي هجاه بقصيدة جعلت محجوب يقرر الدخول مع شوقي في معركة طاحنة، وأعلن أنه سيُعرِّي شوقي أمام الناس، وأنه سيكشف عن سرقاته الشِّعرية، وسيُميط اللثام عن جهله — جهل شوقي — وسيجعل منه عِبرة لَمن يرى، وفعلًا، يكتب الدكتور محجوب مقالًا ناريًّا في هجاء شوقي ويبعث به إلى الأهرام، ولكنه يعود يتصل بالأهرام في المساء طالبًا إلى المسئولين فيها عدم نشر المقال، فقد خشي أن يؤدي نشره إلى قطيعة أبدية بينه وبين شوقي، وكانت القصيدة التي أهاجت محجوب وأغضبته:

براغيثُ محجوب لم أنسَها ... ولم أنسَ ما شَربت من دمي
تَشُقُّ خراطيمُها جَوربي ... وتَنفُذُ في اللحمِ والأعظُمِ
وتنظرها حول «بيت» الرئيس ... وفي شارِبَيهِ وحَولَ الفمِ
بَواكيرُ تَطلعُ قبل الشِّتاءِ ... فتحمل ألوية الموسِمِ
قد انتَشَرت جوقَةً جوقَةً ... كما رُشَّتِ الأرضُ بِالسمسمِ
تُرَحِّبُ بالضيفِ عند الطريق ... فَبابِ العِيادَةِ فالسُّلَّمِ

رأيه في معاصريه

ولقد كتب محجوب ثابت رأيه في أكثر معاصريه: قال عن مصطفى النحاس: إنه كان يمثِّل الوطنية طالبًا، والنزاهة والشجاعة قاضيًا، والإخلاص محاميًا، أمَّا النحاس الزعيم فلأترك الحكم عليه للتاريخ.

ووصف مكرم عبيد بأنه خطيب العواطف، وإذ يلقي خطبته أو يدبج مقاله، أو يدلي بحديثه، فكأنه يوقعه على قيثارة، صديق ودودٌ وعدوٌّ لدودٌ، فهو ملاك في صداقته، شيطان في عداوته، جبار في خصومته.

وقال في إسماعيل صدقي: إن المنصِفين من أبناء هذه الأمة يعترفون بوطنية إسماعيل صدقي وبُعد نظرة، وأن التاريخ سينصفه، وسيقدره الأبناء والأحفاد، بل بدأ الناس يفهمونه، ألم يحمله طلاب الجامعة على الأعناق تكريمًا؟!

وكان للدكتور رأي في فاروق ووالده فؤاد لا أظنُّه كان رأي محجوب ثابت الحقيقي، وأغلب ظني أنه رأي تجاري أراد الدكتور أن يصل به إلى كرسي الوزارة، وهو المنصب

الذي عاش محجوب ثابت ومات وهو يحلم به، وكان يرى أنه أحق الناس في مصر بوزارة الصحة.

لقد ذهب إلى محمد محمود بعد تأليف الوزارة، وانفجر في وجهه ساخطًا لاعنًا مُحتجًّا ... لقد جعلتم من البنداري وزيرًا للصحة وهو محامٍ، لا أطعن في مكانته بين المحامين، ولكن ليست لديه معلومات صحية، ولا دراسات طبية، كما أنه لم يشتغل بالمسائل العامة، ولم يجاهد كما جاهدت، ولم يُضطهَد كما اضطُهِدت، ولم يُنكَب في سبيل الوطن كما نُكِبت، ولم يُنفَ كما نُفيت، ولم يُفتَّش له مكتب كما فُتِّشت، ولم يُتلَف له كتاب، وبالجملة لم يؤدِّ كما أديت، ثم قال مُنشدًا قول غيره في محمد محمود:

رجوتُ لك الوزارةَ طول عمري ... فلما كان منها ما رجوتُ
تقدَّمَني أناسٌ لم يكونوا ... يرومون الكلام إذا دنوتُ
فأحببتُ المماتَ، وكلُّ عيش ... يُحَبُّ الموت فيه فَهْو مَوتُ

ويبدو أن الدكتور يئس من تولي الوزارة فقنع بالحديث عنها، وكيف أنهم فاتحوه في الأمر فرفض، واشترط شروطًا غاية في الحزم وغاية في القسوة، وقد أنشد حافظ إبراهيم فيه قصيدة جاء فيها:

يَبِيتُ يحلمُ أحلامًا مُذهَّبة ... تُغْني تفاسيرُها عن علم ابن سِيرِين
طورًا وزيرًا مطاعًا في وزارته ... يُصرِّف الأمرَ في كل الدواوين
وتارةً زوج مطبولٍ مُدَملجة ... حسناءَ تملك آلاف الفدادين
يُعفى من المهر إكرامًا لِلحيَته ... وما أظلته من دنيا ومن دِين

وبعد حياة طويلة عريضة حافلة، قُدر لمحجوب ثابت أن يهدأ وأن يستريح، ولقد ظل حاضر البديهة متوقِّد الذكاء حتى في لحظاته الأخيرة، وظل يذكر مشروعاته واحدًا بعد الآخر، ثم عضَّ على شفتيه وقال في أسفٍ عميق: لو كنت توليت الوزارة لنفذتها!

ثم أغمض عينيه ... ومات ... وكانت آخر كلماته المشروعات والوزارة!

والحق أقول: إن محجوب أحق من كثيرين بالوزارة، وإنه كان شجاعًا جَنَت عليه شجاعته، كما أودى به ظُرفُه ... ويبدو أنهم كانوا يغفرون كل شيء إلا أن يكون ظريفًا، ولهذا السبب وجدنا في كرسي الوزارة ... اللصوص والخونة والعملاء، الذين أكلوا على الموائد وتسلقوا طريقهم على الأكتاف كالقرود.

أما محجوب ثابت فقد حرموه من الوزارة، فقد كان مجرمًا ... كان ظريفًا!

أتعس الظرفاء

مجدي فهمي

وفعلًا انهمك مجدي في الرقص! واستنجد الرجل بالبوليس، فقد تأكد أن الموظف الذي اقترحه كامل الشناوي ... لا بدَّ أنه كان نزيلًا لمستشفى المجاذيب.

الحرب عام ١٩١٤م

وفي مصر جنود من كل الأجناس، ومن شتى بقاع الأرض: إنجليز، وهنود، وأستراليون، ومن شرق وغرب أفريقيا، والجنود الأجانب يأكلون خيرات البلاد، والمصريون يأكلون من طين الأرض، والفلاحون يهجرون الريف، والأثرياء يفرغون رصاص المسدسات في رءوسهم، والتجار يُفلسون بالعشرات، والخراب يعمُّ وينتشر ويُصبح في نهاية الحرب «زعيم الأغلبية» في البلاد.

ويُفلس مع مَن أفلسَ تاجرٌ عجوز اسمه أحمد فهمي، كانت له تجارة رابحة في الريف. ويقيم أحمد فهمي في المنصورة، وقد هدَّت كيانه المأساة، فلا يجد ما يصنعه إلا النكتة، والتَّرْيَقة على عباد الله.

ومع الإفلاس يُرزق أحمد فهمي بولد، فيطلق عليه من باب التريقة أيضًا ... اسم مجدي، أي مجد الوالد، وكان مجد أحمد فهمي ... الإفلاس.

ويترعرع الطفل مجدي وسط هذه الظروف العجيبة، والد يحترف الهزل بعد أن حطمته المأساة، وأوضاع غريبة تسيطر على البلاد، ملِك يملك ولا يحكم، ووزراء لا يملكون ولا يحكمون، وجيش أجنبي يحكم ويملك كل شيء ... حتى الملك والوزراء.

ويجوب الطفل حواري المنصورة مع أبيه، يدخل غُرَز الحشيش، والمقاهي الحقيرة، ويصافح وجوهًا شاحبة، وأفواهًا نَخَر فيها السوس، ولكنها مفتوحة رغم كل شيء تُقَهقِه ساخرة على كل شيء.

ثم يهجر مجدي المنصورة إلى القاهرة ... إلى المدرسة، ولكنه بعد أن ينتهي من دراسته الثانوية يُصاب بكارثة توقفه، وتمنعه من التقدم خطوة واحدة إلى الأمام. فقد مات أبوه فجأة، وأُصيب بعاهة جعلته لا يرى أبعد من مواطئ قَدَميه.

ويخرج مجدي إلى الشارع.

ولم يكن في الحياة التي شهدتها مصر تلك الأيام مُتَّسعٌ لرجل مثل مجدي لم يُتِمَّ تعليمه، مترهل الجسم كأنه فيلٌ، ضعيف البصر لا يكاد يرى، حاد النكتة كأن لسانه كرباج سوداني أصيل ... فيقنع من الحياة بالفُرجة عليها، والسخرية منها ... ومن كل الناس. ويظل مجدي عاطلًا بلا عمل، وتنشب الحرب العالمية عام ١٩٣٩م ومجدي بلا عمل، ولا أمل في عمل، والحرب جعلت لكل شيء سعرًا حتى التراب، إلا مجدي، فقد ظل كما كان ... لا سعر له على الإطلاق. ولا شيء يشغله في الحياة إلا التردد على مكاتب ومنازل الأصدقاء، يضحكهم، ويدخِّن من سجائرهم، ويأكل على موائدهم، ثم يتكرم أحدهم آخر الليل بتوصيله إلى بيته.

بِتلَعَّبْلي حواجبك؟!

وكان من الممكن أن تمضي الحياة هكذا إلى آخر العمر. ولكن أحد أصدقائه — كامل الشناوي — يعثر له على عمل، في أحد المكاتب ليقوم بترجمة نشرات عن جهود الحلفاء في الحرب، عملٌ يجيده مجدي، وبمرتَّب لم يكن مجدي يحلم به، تسعون جنيهًا ليس كل عام، وليس كل دهر، ولكن كل شهر، ويخطف مجدي العنوان من يدِ كامل الشناوي ويُهرول نحو المكتب ويدخل على «صاحب السعادة» المدير، فيجده رجلًا ضئيلًا لا يكاد يبين من خلف المكتب، دميمًا كأنه قرد، ولكنه بالرغم من ذلك يبدو بشوشًا رقيقًا مجاملًا إلى حدٍّ بعيد. ويجلس مجدي أمامه في أدب شديد يستمع إليه وهو يشرح له تفاصيل العمل، وكان الرجل يعاني من شلل قديم أورثه حركة عصبية غريبة تجعله دائمًا يرعش حاجبه الأيمن ويخرج لسانه، ويهز كتفه الأيمن، خصوصًا إذا انهمك في الحديث، وعندما انتهى الرجل من شرْح طبيعة العمل وذكر المرتب (٩٠ جنيهًا) راح يخرج لسانه لمجدي ويهز له كتفه، ويرعش له حاجبه في حركة متواصلة، ودقق مجدي النظر إليه، فتأكد أن

الرجل يسخر منه، وليس أدل على ذلك من هذه الحركة الغريبة، ومن المرتب الذي ذكره؛ إذ إن مجدي كان لا يحلم بأكثر من تسعة جنيهات.

وعندما يصل مجدي إلى هذا الاستنتاج الخاطئ، يقفز من فوق مقعده، ليقف وسط الحجرة ويصرخ في وجه الرجل: بقى انت بتلَعَّبْلي حواجبك، طيب أنا هَرقُصلَك.

وفعلًا ... انهمك مجدي في الرقص، واستنجد الرجل بالبوليس؛ فقد تأكَّد له أن الموظف الذي اقترحه كامل الشناوي ... لا بد أنه كان نزيلًا لمستشفى المجاذيب.

الغريب في الأمر أن المدير ظل معتقدًا حتى آخر أيام حياته، أن الموظف مجدي هو أحد «مقالب» كامل الشناوي. ما علينا، فقد خسر مجدي الوظيفة، وعاد إلى الشارع.

وتمضي سنوات طويلة ومجدي عاطلٌ، ثم يتوسط له حفني محمود عند حامد جودة ليُلحقه بوظيفة في مجلس النواب، ويوافق حامد جودة، ويصبح مجدي أخيرًا موظفًا على اعتماد، وبمرتب خمسة وعشرين جنيهًا. ولا يكاد ينقضي أسبوع على تعيين مجدي حتى يهب الشعب في كل مكان ثائرًا ضد حكومة الأقليَّة، والمدُن تموج بالمتظاهرين يهتفون بسقوط الخوَنة، ويصيحون مُطالبين بالجلاء والاستقلال، وتستمر المظاهرات أسبوعًا كاملًا، وتُهاجم الجماهير الغاضبة دار مجلس الوزراء، والوزارات، وتتجه إحداها إلى مجلس النواب. ويقف حامد جودة يرقب المظاهرة الصاخبة من نافذة مكتبه، عشرات الألوف يزمجرون ويهتفون: «يسقط الخونة، يسقط حامد جودة.» وشخص أكثر حماسًا من المتظاهرين يقود المظاهرة، ويركب فوقها، ويهتف في صوت كالرعد: «يسقط حامد جودة.» ويدقق حامد جودة النظر إلى الشاب الذي يركب فوق الأعناق، فيجد أنه نفس الشاب الذي توسَّط له حفني محمود ... البائس مجدي. وتقوم الدنيا وتقعد، ويُفصل مجدي من مجلس النواب.

ركوب المظاهرة!

ولكن حامد جودة يستدعيه، ويصر على أن يعرف منه الأسباب التي دفعت به إلى ارتكاب هذه الجريمة!

ويجيبه مجدي في سذاجة وفي سخرية: ولا حاجة، أنا خرجت من بيتنا عشان أوصل للمجلس لقيت المظاهرات شغالة والمواصلات مقطوعة، فقلت أحسن طريقة أركب مظاهرة لحد المجلس ... ويضحك حامد جودة حتى يستلقي على قفاه، ويخرج مجدي من مكتب رئيس المجلس ... إلى المهنة التي كان يجيدها ... إلى الشارع.

ويسأم مجدي البطالة فيبحث بنفسه عن عمل، وكان يهوى الصحافة فاتصل بصاحب إحدى المجلات الأسبوعية الذائعة وتوسَّل إليه أن يفسح له مكانًا في جريدته، ووافق الرجل، وذهب مجدي إليه. وخلال جلسة استمرت تسع ساعات كاملة وامتدت حتى الفجر، ظل الرجل صاحب الجريدة يُلقي على مجدي دروسًا في الصحافة، وفي فن الكتابة، ومجدي يستمع إليه ويبتسم ويهز رأسه موافقًا إياه على كل حرف.

يقول مجدي: كان الرجل جاهلًا ... أجهل من مُعلم إلزامي، حقيرًا أحقر من عبد، فاستغل ضعفي وحاجتي إليه ليفرز معي عُقَده النفسية. وخرجتُ من مكتبه وقد اتفقنا على أن أكتب له مقالة في الأدب، مقابل عشرة جنيهات.

وغاب مجدي أيامًا ثم عاد ومعه المقال، مقال في الأدب كما اتفق مع الصحفي الكبير، وقرأ الرجل المقال فأعجبه، وأمر بنشره على الفور، وظهر المقال في الجريدة، وكانت فضيحة! يقول مجدي لقد خسر الجاهل سمعته، وخسرت، أنا الجنيهات العشرة.

وكان المقال يبدأ هكذا: يقول همفري بوجارت في كتابه «الشمس طالعة»: إن كل ما يجري على أرض الناس لا يمكن أن يدوم إلا بعد فوات الأوان، ولكن «شارل بواييه» يرد عليه زعمه هذا في مؤلفه الضخم «من هنا حتى نعود» فيقول: إن الإنسان الفرد ليس ذا قيمة حقيقية إلا بالحلوى. وإن الحلوى تفقد طعمها بمجرد أن ينسى الإنسان نفسه؛ إذ إن الإنسان كالقرد، يحلو له أن يتسلق الحياة، حتى إذا تمكَّن من الوصول انداحت من حوله المآسي، كما تنداح مياه بحيرة التمساح!

واختفى مجدي بعد ذلك شهرًا كاملًا، وقيل إن صاحب الجريدة «المثقَّف» أقسم أن يقتله بالرصاص.

فتلة المرسلات

ويسأم مجدي البطالة مرة أخرى فيبحث عن شيء جديد، وسرعان ما يجد هذا الشيء في باب إحدى المجلات الأسبوعية؛ إذ أرسل مجدي إلى المجلة خطابًا رقيقًا هذا نصه:

> فتاة خمرية، شعرها طويل، جميلة جدًّا، من أسرة محافظة، دَخْل شهري محترم، ترغب في مراسلة شاب، منصِب محترم، لا يزيد على الأربعين، طويل، رياضي، يهوى التحف والأسفار.

وينهال على العنوان الذي ذكره مجدي مئات الخطابات من قُضاة في المحاكم، ومحامين ذوي شهرة، وأطباء مرموقين، وطلبة مراهقين، وصياع، وذئاب، وأولاد ناس، وأولاد كلب. ويستمتع مجدي بقراءة خطابات الغرام العنيف الذي هبط فجأة على حضرات الروميوهات، ثم يعتني بالرد عليها جميعًا. وانقَضَت خمسة شهور قبل أن يكتشف بعضهم اللعبة، فقد ذهب بعض الروميوهات الذين لم يستطيعوا الصبر إلى العنوان الذي ذكرته الخَمرية ذات الشعر الطويل، فإذا به نادي نقابة الصحفيين.

وذات مساءٍ كان مجدي يجلس مع مأمون الشناوي في منزل مأمون؛ إذ لم يكن لمجدي منزل. وكان معهما مُدرس وقور كان يتردد على بيت مأمون ليعطي أبناء مأمون دروسًا في اللغة العربية، وكان المدرس — كما قلت — وقورًا لا يحب المزاح. خجولًا مُنطويًا على نفسه، وكان رغم فقره يتمتع بمظهر محترم، وكان مجدي يخشاه ويتجنبه؛ فقد كان دائم الحديث عن الجنة والنار ومعصية الله.

وفجأة، دخل عليهم المخرج المشهور أحمد بدرخان، وما إن عرف المدرس الوقور أن الزائر الجديد هو بدرخان، حتى انقلب إلى النقيض، وراح يصرخ ويزوم، ويقفز كالثور ويتحدث بسرعة وبلهجة مضحكة: أستاذ بدرخان، يا سلام، المخرج، يا ألف مرحب بتاع السيما، يا حلاوة، يا أهلًا وسهلًا، يا ألف مرحب، يا ألف نهار أبيض. أهلًا أهلًا، وعندك فيلم دلوقت، دا شيء جميل خالص، طيب والنبي خُدني، أي والله خدني، وحياة مَن جمَّعنا من غير ميعاد تاخدني.

– بس آخدك إيه؟

وهتف مجدي على الفور: خدو على قفاه!

وخرج المدرس من بيت مأمون، ولم يعُد على الإطلاق.

«تسريح» مُزيَّف!

وعندما احترقت القاهرة، وفرض فاروق الظلام على البلاد، وأجبر الناس على الفرار إلى البيوت قبل المغرب كالأرانب. شهر مجدي لسانه على العهد كله، واشترك في المعركة إلى جانب الشعب كمقاتل يُطلق «الكلام» على معاقل الطغاة، فكانت كلماته أفتك من الرصاص، وأشد مفعولًا من القنابل.

يروي مجدي نكتة من أغرب ما حدث له تلك الأيام: كنت ماشيًا في السكة، وفات ميعاد حظر التجول، بصيت لقيت عسكري ورايا عَمَّال يصرخ ... قف مَن أنت، قف مَن

أنت، رُحت واقف مكاني، جه العسكري قدامي ومعاه بندقية وسُونكي وسألني: معاك تسريح «تصريح»؟

– أيوة معايا.

– وريني.

يقول مجدي، وضربتْ لخمة معي، فلم يكن معي تصريحًا، لقد خشيت أن أبلغه بالحقيقة فيغرز السُّونكي في بطني، فآثرت الكذب حتى تكون هناك فرصة للتفاهم. وبحثت في كل جيوبي عن شيء يصلح «تصريحًا» فلم أعثر على شيء، فلم يكن معي بطاقة، ولا شيء يشبه البطاقة وكل ما عثرت عليه، ورقة يانصيب ... (الدبة)، ورقة عليها أرقام، وعليها صورة الدبة. وسلمت العسكري ورقة اليانصيب الدبة، فأخذها مني وابتعد عني قليلًا ليلقي عليها نظرة في ضوء عمود النور. وغاب العسكري طويلًا، ظل يحدق في الورقة أكثر من عشر دقائق، وأنا أتوقع شرًّا خلال كل لحظة، فقد خشيت أن يفهم العسكري أنني تعمدت السخرية به فيطعنني بالسونكى، أو يطلق عليَّ النار. وبعد أن انقضت عشر دقائق كاملة، تقدَّم العسكري مني وصوَّب بندقيته نحوي، وقال لي في لهجة الواعي الخبير وهو يشير على ورقة اليانصيب وإلى صورة الدبة بالذات: لكن دي مش صورتك!

واستطاع مجدي أن يقنعه بأن الصورة له ولا أحد سواه، واستطاع أيضًا أن يقنعه بمصاحبته إلى المنزل، حتى لا يتعرَّض له أحد غيره.

وعاش مجدي حياته بعد ذلك يضحك، ولكنه ضَحِكٌ كالبكاء، ويسخر سخرية مريرة من الأوضاع المقلوبة، والنُّظُم الحقيرة، ويلعن الحياة والأحياء، ويسبُّ الدين والدنيا وكل الناس، حتى الذين اعترضوا طريقه، والذين تعقَّبوه وطاردوه.

ثم قُدر لمجدي أن يشهد البعث، فعاش حتى نشبت الثورة، ولكنه لم يشهد إلا بدايتها ... ثم فجأة ... مات مجدي. وكانت حياته القصيرة الخاطفة أشبه بضحكة عريضة صافية من ضحكاته، سرعان ما تُدوِّي، وسرعان ما تختفي وتتلاشى.

ومات مجدي ولم يبلغ السادسة والثلاثين، وهكذا ذهب آخر ظرفاء العصر، وأطيبهم قلبًا، وأتعسهم حظًّا، فقد كان أتعس حظًّا ... حتى من عبد الحميد الديب.

الثائر الساخر

بيرم التونسي

«فنان الشعب لم يستجدِ يومًا بفنِّه، ولم يطلب أجرًا ثمنًا لموقفه، وعاش ومات يقول فنًّا ... لا يخطب ولا يصرخ، لأن الفن أقوى من كل شيء.»

كان نموذجًا للفنان الملتزم، واشتراكيًّا حقًّا، كأن الاشتراكية ميكروب يسري في دمه، وفي سبيل هذا الموقف الرائع دفع حياته، ولم يدفعها مرة واحدة، ولكن دفعها بالتقسيط، وقضى عشرين عامًا يتسوَّل في باريس، ويتصعلك على رصيف ميناء داكار، ويتجول كالذئب حتى بلده تونس، ويرتعش من شدة البرد تحت جبل أيسون في الشام.

فنان الشعب لم يستجدِ يومًا بفنِّه، ولم يطلب أجرًا ثمنًا لموقفه، وعاش ومات يقول فنًّا، لا يخطب ولا يصرخ؛ لأن الفن أقوى من كل شيء، عاش رغم أنف الصياع الذين شتموه، والحُساد الذين حقدوا عليه، وأولاد الذوات الذين احترفوا الفن لأنه موضة الموسم، وهو يقول في كل شيء وأي شيء؛ لأنه عاش الحياة كلها عاشها بالطول وبالعرض، وبالعمق، كذلك عاش محتجًّا، لا يُهادن ولا يُماين، محترق الأعصاب كأنه شمعة تحترق، زاهدًا كأنه غاندي، لا يجد حتى معزة يسحبها وراءه.

واكتشف — والتاريخ لا يزال فجرًا — سر المشكلة.

المشكلة ليست وطنية، ولكنها اجتماعية من الدرجة الأولى، وعساكر الإنجليز ليسوا كل المشكلة، ولكنهم جزءٌ منها، توزيع الأرزاق هو المشكلة الحقيقية، والتهليب هو المرض الذي يجب أن يُحارَب.

ورفع سيفه ضد المهَلِّباتِية والخطَّافة وقُطاع الأرزاق، موقفٌ عظيم من فنانٍ عظيم، يرتفع به إلهامه إلى مرتبة النبوَّة.

ففي الوقت الذي كانت فيه غاية الكفاح، صراخ حاد من الحناجر «مصر والسودان لنا وإنجلترا إن أمكنا» و«الاستقلال التام أو الموت الزؤام» كان هو يرى المشكلة بالعكس، فليس الاستقلال أن ترحل عساكر الإنجليز من مصر، بل الذي يجب أن يرحل هو استماطي وبنايوتي وكل الخواجات المتمصِّرين وكل المصريين المستخوجين.

يقول مُعرِّيًا هؤلاء الغرباء المتمصِّرين:

«والقطن برضه لمزراحي ولقرداحي،
وابن البلد يقعد ماحي في بلاده يقيم
أقطانه. هو اللي زرعها، واللي جمعها،
ويوم ما باعها ما جابت له حق البرسيم.
بنايوتي يقبض ويحصل، ودا بيوصل،
ويجري دايمًا ما يحصَّل ولا حتى بهيم.»

هنا المشكلة ... أجير يطفح الكوتة طول النهار ولا يكسب شيئًا، وخواجا مجَعْبز على القهوة طول النهار، يلعب الطاولة ويقبض ثمن كل شيء!

الفنان العظيم وضع يده على المشكلة ثم راح يغوص فيها حتى القاع ... ناس تعمل ولا تجد ما تأكله، وناس تأكل وليس لديها ما تعمله. ويكتشف الفنان عالمًا غريبًا اسمه السمسرة ... أي شحط معه ثروة يدخل بها السوق ... ليحصل في النهاية على ضِعْف ثروته.

وعن هؤلاء السماسرة يقول:

ولا بيحرث ولا بيبذُر،
ولا بيسبك ولا بيطرق،
ولا بيحصد ولا بيجمع،
ولا بيخرط ولا بيقطع،
ولا بيشحن ولا بيخزن،
ولا بيوزن ولا بيدفع،
وهو الغانم الأسلاب؛

وغيره يضرب المدفع،
وإذا السوق ارتفع سالك،
وإذا السوق اتضرب سالك،
وغير مسئول عن التالف،
وغير مسئول عن الهالك،
وبالتليفون يجيب مليون
ومِيت مليون، ولا يشبع؛
وله يوم الصعود فرصة،
وله يوم النزول فرصة،
وهدم بيوت، وخَلْق تموت
بحسرة، وهو متمتع.

هذا فنانٌ مثقَّف، وسر فنيته أنه يحس المشاكل بمزاج مصري. حتى في الغربة وهو بعيد، صايع وضايع وغلبان، يظل يبحث عن شيء ينقصه:

لا سَطْل خروب يسعِفْني،
ولا ابن نُكْتة يكيِّفني.
ما يقصِف العُمْر ويفني
غير الخلايق بعيلها.

وهو لا يسكت أبدًا ولا يهمد، حتى وهو في تونس ... في المنفى ... يتحرك ضميره فيتحرك لسانه:

والمغربي المسلم راخر
أبو زر فاشوك،
لما انتقدته فزع قاللي:
يلعن أبوك.
وأنا اللي قصدي أشوف قيده
يصبح مفكوك.
لقيته فرحان بيه راضي؛
طيب، مبروك.

وهو إذا دخل معركة لا يداوِر ولا يناور، بل يقتحمها بالطريق المباشر؛ لأنه صاحب ضميرٍ حي:

وجابوك الانجليز يا فؤاد قعَّدوك
تمثِّل على العرش دُور الملوك،
وخلوك تبَهدِل في أُمَّة أبوك.
ومين يلقوا مثلك مغفل ودون؟

وهو لا يكتفي بهذا الكلام المباشر، إنه ينهش الطاغية في عِرضه، إنه فنان يفهم مزاج الشعب، وشعبنا قد يغفر كل شيء، إلا التفريط في العِرض ... إنه يسخر من الطريقة التي وُلد بها الأمير فاروق ... والشعب فيها يتهامس في السر بأن الأمير قد وُلد بعد أربعة أشهر من زفاف أمه نازلي من السلطان أحمد فؤاد ... ويتلقَّف بيرم التونسي هذا الهمس، ليجعل منه قنابل يفجرها في وجه السلطان:

مرمر زماني، يا زماني مرمر.
البنت ماشية من زمان تتمَخطر.
والغفلة زارعة في الديوان قرع أخضر.
يا راكب الفيتون وقلبك حامي،
اسبق على القُبة وسُوق قدامي،
تلقى العروسة زي محمل شامي،
وأبوها يشبه في الشوارب عنتر،
وغطي زهر الفل فوقها وفوقك،
وجِبلها شبشب يكون على ذوقك،
ونزل النونو القديم من طوقك،
يطلع كويس لا الولد يكبر.
ويوم ما ينزل في الجاكتة الكاكي،
وستة خيل والقمشجي الملاكي،
تسمع قولتها ...
العافية هابلة والولد متشطَّر،

الوزة من قبل الفرح مدبوحة،
والعطفة من قبل النظام مفتوحة.
ولما جت تتجوز المفضوحة،
قلت: اسكتوا خلوا البنات تِسَّتَّر.

ويحشد القصر كل جواسيسه وبوليسه ضد بيرم التونسي، ولكن بيرم التونسي لم يكن مصري الجنسية حتى تلك اللحظة، ولعله سوء الحظ — سوء حظ الملك — أن يكون بيرم التونسي مُتمتِّعًا بالحماية الفرنسية، ولو أنه كان مصريًّا لحظةَ كتابة هذا الزجل الرهيب لتدلى بيرم التونسي من حبل المشنقة. ولكنهم في البداية اكتفوا بضَربه، واستأجروا بلطجيًّا جزائريًّا يعيش في مصر اسمه يوسف شُهدي ليتعقَّب بيرم التونسي ويقتله ... وأدى الرجل مهمته على الوجه الأكمل، ظل يتعقَّب بيرم ويضربه كلما يلقاه، ولكن يبدو أن الضرب لم يكن كافيًا لقطع لسانه، فنفوه ... ووقف على رصيف الميناء يوم عيد الأضحى، والدموع تغمر عينيه، ينظر إلى مصر نظرة أخيرة:

يوم الدبايح كان آخر مواعيدك،
وقفت لِك فرحان أنصب رايات عيدك،
وأفرش لِك الريحان وأسمع زغاريدك.
زعق غراب البين فصَّلت أكفاني.
يا ريته كان في منام يصبح ويتفسر،
أو حكم بالإعدام على القاسي بيستر،
ما كان تشوف العين حال اللي بكاني.

ويسمع وهو في المنفى، أن كل شيء في مصر ينهار ويتحلل، رائحة العفن في كل مكان، والتفسُّخ في كل شيء، وعبد المنعم أبو بثينة أصبح أميرًا للزَّجَّالين:

خراب ما يحتاج لمعاينة،
وفن باير، وأهي باينة؛
أميري جوز أم بثينة،
وأنا الرعية وعيالها.
يا مصري هجرك يكفاني.

يا عاملة قُمع ونسياني،
ويوم ما هرجع لِك تاني،
هتبقى راجعة براسمالها.

الثائر ... الساخط ... يجد وقتًا للضحك، كلماته تقطر سُمًّا، وتقطر حلاوة، ليس في العالم أكثر ضراوة من رجل ضائع يضحك.
كتب زجلًا يرثي به سجَّانًا اسمه غانم:

وانشال سي غانم مِرابْعَة بعد ندب كفاه،
وندب كان يستحقه في حياته قفاه.

ويصف حفلة رقصٍ في باريس:

يا صاح وحقك ليس على
مَن راح المرقص من حرَج.
جمعوا الفتيان مع النسوا
ن فيا للأمر المنبهج.
ما كان مغنِّي القوم يد
ق الدف بلحن منه شجي،
حتى انفرطت وحداتهم،
ثم ازدوجت بالمزدوجِ.
رجل وقرينته التصقا
بصدور العز وبالمُهَجِ.
فعلى كتفيه معاصمها،
ويداه بخصر ذي عِوَجِ.
فإذا انجذبت فلمنجذب،
وإذا اختلجت فلمختلجِ،
وإذا نقلت قدمًا رفعت
قدمًا، والرفع بلا عَرَجِ.

وهو فنان صحيح، ولكنه مصريٌّ بسيط فيه كل خصائص المصري البسيط، حتى مزاجه مصري، بلدي، وهو يحب النسوان، وهذه الكلمة بالذات «النسوان» عنوان قصيدة في ديوانه، أنا شخصيًّا أعتبرها أرقَّ ما كُتب في الأدب العربي عامة عن النسوان:

في كل عام للورد أوان، إلا النسوان.
وبقدرتك نابتين ألوان أبيض وأحمر.
وانت اللي تعلم، وأنا أجهل إيه أجمل
من الخدود اللي لا تدبل ولا تتغير.
ودي العيون اللي أشهد لك بها وأسجد لك،
دي خلت الطاغي انقاد لك والمتكبِّر.
والشفتين اللي فالقهم كنت خالقهم
للابتسام، والا رازقهم، دا أنت تحيَّر.
العبد يعشق بالقوة عشق لجوَّه،
وكمان جهنم؟ إيه هو؟ ما احناش معشر.
بذِمتي انت اللي جاذبني، يا معذبني،
ويالِلي ذوقك يعجبني لما تصوَّر.
لك صنعة في العين والحاجب، بها تتعاجب،
ونقول وجود الله واجب، مين بيه يِكْفَر؟
وليك قوالب في الأجسام، غُلُب الرسَّام
يقلِّدك بحجر ورخام يلقاك أشطَر.
يا سِت أم زناق محبوك وقميص مفكوك،
حطِّي على القلب المشبوك إيدِك بِعمَر.
ويام نص ملاية حرير، والنص يطير
على أكتاف، أنا عقلي غطى المرمر.
ويللي ساقك يسوَى رقاب حارة الباب،
في لون حقيقته إن كان بشراب والَّا مقشَّر.
يا مسلمين الله يا حريم، أنا ما لي غريم
غيركم أروح وياه في جحيم يوم المحشَر.

وهو يسخر من المؤمنين أصحاب الحاجات:

يا رب سُلطان جمالك يتعبد للذَّات،
خالص لوجهك، لا للنيران ولا الجنات،
لكن عبيدك وخلقك يعبدوك لغايات،
وصبحوا وأنا عبد منهم كلهم ترسات.

وكل شيء في الحياة يستحق السخرية، وهو صاحب عينٍ نفَّاذة لا تفوته شاردة، وهو، لأنه صايع، ولأنه ثائر، تقع عينه على منظر عادي بالنسبة للرجل العادي، ولكن هو الفنان، يستخرج من المنظر العادي صورة خالدة:

أربع عساكر جبَّارة يفتحوا بِرلين
ساحبين بتاعة فِجل جايَّة من شِربين.
أنا قلت: إيه الحكاية؟ قال: خالفت الجوانين.
طب اشمعنى ميت ألف واحد في البلد سارحين
يشَرَّطوا في الجيوب ويكسَّروا الدكاكين؟

وعلى نفس الطريق، يقهقه في صِباه قهقهةً دامية:

يا بائع الفجل بالمليم واحدة،
كم للعيال، وكم للمجلس البلدي؟
إذا الرغيف أتى فالنصف آكُلُه،
والنصف أجعله للمجلس البلدي.
كأن أمي، أبلَّ الله تُربتها،
أوصت فقالت أخوك المجلس البلدي.

ويصوع ويجوع، ثم يعود آخر الأمر مُثخَنًا بالجِراح ... مضرَّجًا بالدم ... ولكنها على أية حال، عودة إلى البلد الذي أحبه بشغفٍ، وإلى الشعب الذي عَبَدَه بجنون، وعلى رصيف ميناء بورسعيد، يهتف بكلمات كأنها قطرات دم تسيل من قلبه:

غُلُبت أقطع تذاكر، وشبعت يا رب غُربة
بين الشطوط والبواخر، ومن بلادنا لأوروبا.

وقلت ع الشام أسافر، إياك ألاقيلي تُربة
فيها أجاور معاوية، وأصبح حماية أمية.
في بورسعيد السفينة، رسيت تفرغ وتملا،
والبياعين حاوطونا بكارت بوستال وعُملة،
لكن بوليس المدينة ما تزُوغْش من جنبه نملة،
يا بورسعيد والله حسرة، ولسة يا اسكندرية.
هتف بي هاتف وقاللي: انزل، ومن غير عزومة،
انزل دي ساعة تجلِّي، فيها الشياطين في نومة،
انزل دا ربك تملِّي فوقك وفوق الحكومة.
نطيت في ستر المهيمِن للشط يا حكِمدارية.
وأقولكم، بالصراحة اللي في زماننا قليلة،
عشرين سنة في السياحة وأشوف مناظر جميلة؛
ما شفت يا قلبي راحة في دي السنين الطويلة؛
إلا امَّا شفت الملاية واللِّبدة والجلَّابية.

أخيرًا عاد ... وسيعيش الآن في مجتمع الأرزقية، يأكل عيشه بحذر، بعد عشرين سنة طويلة من الصياعة والضياعة، اكتشف أن كل شيء لا يزال مكانه ... الخونة في الصدارة، وأصحاب القضايا العظيمة في الذيل لا يشعر بهم أحد.

لكن هل يسكت بيرم التونسي؟ هل يهمد؟ هل يسترزق؟ إنه على أيَّة حال، سيُحاول أن يعيش وسيقاوم ما استطاع، ويطلبون منه في النهاية أن يؤلف شِعرًا للأسرة المالكة، آخر ما كان يتوقعه بيرم، ولكنها فرصة على أية حال، وسيطلق العنان للسانه، وسيمدح، ولكنه سيجرح في الوقت نفسه:

ومزارع جوها دافي،
وطولها وعرضها وافي،
وليه يمشي ابنها حافي
يمد الأيد ويطويها؟
وليه الباشا والوالي
يجبهم بابها العالي؟

وليه ما يكونش طوالي
حاكمها من أهاليها؟

تصوَّروا ... هذا مدح في العائلة المالكة، ولأول مرة في التاريخ بعد قمبيز، يصبح لمصر حاكم مصري من أهاليها، ويعيش بيرم التونسي حتى يرى المعجزة تتحقق ويصرخ في ميكروفون الإذاعة ليلة خروج الطاغية من مصر، وصوته مبلَّل بالدموع:

يقوم من سراية يروح في سراية،
ويبعث عشايا بنرمين هدية.
وخالتي الإذاعة تقول كل ساعة،
وعظيم الثنايا جزيل العطية.

تحية لابن البلد الفنان الإنسان ... محمود بيرم التونسي.

الحياة في إنسان

كامل الشناوي

هذه السطور كتبتُها عن كامل الشناوي وهو حيٌّ، فلما مات فكرت في كتابة فصل جديد ... ولكني عدلت! ولأسباب أحتفظ بها لنفسي. لنترك كامل الشناوي التاريخ ... للتاريخ، ولنتكلم عن كامل الشناوي الحي.

كان كامل الشناوي رجلًا فريدًا بين الرجال ... أعداؤه يكرهونه على طول الخط، وأصدقاؤه يحبونه على طول الخط ... والسبب ... كامل الشناوي نفسه.

فهو إذا أَحَبَّ، أحب بلا قيدٍ ولا شرط، وإذا كَرِهَ، كره بلا قيد ولا شرط، وهو مثل القائد الحاسم، إذا هاجم دمَّر هدفه تمامًا، وإذا انسحب، مضى لا يلوي على شيء.

السر

وعلاقته بأي إنسان تحددها صفات هذا الإنسان نفسه؛ فإذا كان إنسانًا وسطًا ... فكامل يكرهه، «فليس أبغض على قلبي من الشيء الوسط، ويستوي عندي نصف الأُمِّي ونصف المتعلم!»

وهو لهذا السبب نراه يعشق الأذكياء والأغنياء معًا ... ويكره الذين يمتازون بنصف ذكاء، والذين يتمتعون بنصف غباوة ... ولكن — وهنا العجب — نرى كامل الشناوي لا يُطبق هذا المذهب على سلوكه هو نفسه في الحياة ... مثلًا، إنه يعشق الحرية، ويناضل في

سبيلها ... ولكن نصف نضال ... وهو ينشد العدل، ويدافع من أجله، ولكن نصف دفاع ... وهو يحمي المواهب ويحتضن أصحابها، ولكن أيضًا، نصف حماية، ونصف احتضان.

ولا بد أن يكون وراء هذا السلوك سر من الأسرار ... ربما كان السر عُقَدًا نفسية تراكمت بمرور الزمن على نفس الصبي الصغير الذي خرج من السيدة زينب، ومن بيئة يحكمها ويتحكم فيها سلطان الدين، ليتربَّع هذا الصبي الصغير آخر الأمر على رأس المجتمع، يبهره، ويدهشه ويشترك في توجيه مصيره، وصُنْع أحداثه، لفترةٍ طويلة من الزمان.

البحث عن الحياة

ولقد بدأ كامل الشناوي حياته طالبًا في الأزهر، ثم ما لبث أن هجر الدراسة فيه كافرًا بالمناهج العقيمة، بالعلوم الجامدة التي انفصلت عن عصرنا عشرات القرون، بالجهل النشيط الذي كان ميزة بعض علماء الأزهر في تلك الأيام. وخرج كامل إلى الحياة ينشد البحث عن شيء يحِن إليه ويحبه، عن الشِّعر، عن الفن، عن الموسيقى، عن الغناء ... وبمعنًى آخر، خرج ينشد البحث عن الحياة. فنراه ينضم إلى جمعية للشعراء، ثم يذهب إلى حافظ محمود ليتعلم منه فن الخطابة والإلقاء، ثم يبعث إلى جريدة الأهرام بين الحين والحين بقصيدة من نَظْمِه، ولكن القليل من هذه القصائد كان يرى النور، أما الغالبية العظمى فكان يجد طريقه بسهولة ... إلى سلَّة المهمَلات.

المقلب رقم ١

يقول كامل الشناوي: كان المشرف على الصفحة الأدبية في الأهرام ممن يطربون للألفاظ الغريبة الميِّتة «كجُلمود صخر ... وأشياء من هذا النوع، ولم يكن يستسيغ أبدًا هذه المعاني الجديدة، ولا هذه الرقَّة التي أخذت تسيل من شِعر شُبَّان ذلك الجيل!»

وفكر كامل في وسيلة ليقنع بها الأستاذ المشرف على الصفحة بأن شِعره يستحقُّ النشر، ووجد الوسيلة أخيرًا في «مقلب» فيه كل الاحتجاج، وكل السخط وكل الثورة التي تعتمل في نفس كامل، وفيه، قبل هذا وبعد هذا ... فنٌّ جميل.

ومن هنا، ستظل «المقالب» من هذا النوع هي هواية كامل الشناوي، وطريقته المُثلى في التعبير عن رأيه بصراحةٍ في الأشخاص والأحداث.

فضيحة

ونفَّذ كامل الشناوي «المقلب»؛ كتب قصيدة من نوع:

سلامًا صباحًا لا يعمُّ ولا يجري ولا ألما بها نفسي ولا تدري

وهات يا شِعر من هذا النوع الذي يعجب الأستاذ المشرف على الصفحة، ثم ذيَّل القصيدة بإمضاء شاعر مشهور كانت له شنَّة في تلك الأيام. وطوى القصيدة، وبعث بها إلى الأهرام. ونشرت الأهرام القصيدة ... وكانت فضيحة.

الصداقة والشِّعر

وهكذا أيضًا ... دخل كامل الشناوي الأهرام، محرِّرًا بها، ثم مشرفًا على الصفحة.

وكان صِيته قد بدأ، رغم حداثة سِنه، ينتشر في كل الأوساط، ودخل الشاب السمين الأسمر الذي يحفظ الشِّعر ويقرضه، ويقول النكتة، ويجيد حَبْك المقالب، ويُقلد الأصوات والحركات، دخل القصور، وجالس الوزراء ورؤساء الوزراء، وأصبح صديقًا لصاحب القبضة الحديدية ... محمد محمود.

ولكن — وهنا العجب أيضًا — نرى الشاعر كامل الشناوي، الذي أصبح صديقًا لمحمد محمود، لا يمدح بشِعره هذا الحاكم بأمره ... إن القصيدة الوحيدة التي قالها في مدح زعيم ... كانت في مدح مصطفى النحَّاس، بالرغم من أنه لم يكن صديقًا له، «وكل ما هناك أنه يستحق شِعري!» لماذا؟

لأن النحاس كان ممثِّل الشعب بحق في ذلك الوقت، كان أعظم الزعماء، وإذا كانت الصداقة لرئيس الوزراء ... فالشِّعر يجب أن يكون للزعيم.

عالم جديد

ويسأله المرحوم تقلا باشا عمَّا إذا كان له أصدقاء من بين الوزراء، فيجيبه كامل الشناوي ببساطة: «إنني أسهر كل ليلة مع محمد محمود.»

ويخبط تقلا باشا كفًّا بكف، فأمامه صحفي عبيط يصادق رئيس الوزراء ... ثم يكتب في جريدته شِعرًا. ويصرخ تقلا باشا في وجه الصحفي الغشيم: حاول أن تحصل على كل الأخبار من محمد محمود ... ويجيب كامل بنفس البساطة: سأحاول.

ويخرج من مكتب تقلا باشا إلى سراي محمد محمود.

احتراف الصحافة

وفي مجالس الوزراء والزعماء لا يكون الحديث نُكَتًا فقط ولا دردشة فقط، بل إن الذين يصنعون الأخبار، يضطرون حتى في حياتهم العادية إلى الدردشة في الأسرار والأخبار والأنباء، وهو الكَنز الذي يبحث عنه كامل الشناوي الشاعر الذي قرر أن يكون صحفيًّا. ومن خلال الدردشة والحديث، يلتقط كامل الشناوي خبرًا هامًّا: أن أمين عثمان سيسافر إلى القدس ليجتمع بأحد المسئولين الإنجليز، وأن مفاوضات على مستوًى عالٍ ستدور هناك، بعيدًا عن أعين الصحفيين ورقابة الشعب.

ويُسرع كامل الشناوي إلى الجريدة ومعه الخبر، ويُعيد تقلا باشا صياغة الخبر وينشره منسوبًا إلى مراسل الأهرام في القُدس، ويُحدث الخبر هزَّة في كل الأوساط، ويتلقَّى كامل التهنئة، ويقبض مكافأة ضخمة، أكدت عزمه الذي كان قد استقر على أن يتحول بكل طاقاته إلى احتراف مِهنة المتاعب والقلق ... الصحافة.

مقلب مضاد

ويدرك محمد محمود بذكائه أن كامل الشناوي، المحرر بالأهرام، وصديقه وجليسه، هو مصدر الخبر، ولكنه «يبلعها» ويسكت لجولة قادمة، ليُلقِّن كامل الشناوي درسًا لا ينساه ... وذات مساء، وفي سراي محمد محمود وكامل الشناوي جالسٌ يُنصت في اهتمام، يُعلن رئيس الوزراء خبرًا، هو في ذاته سَبْقٌ صحفي عالمي. أن جوبلز وزير الدعاية في حكومة هتلر قد وصل إلى مصر سرًّا، ونزل بفندق سميراميس، وأنه التقى بمحمد محمود في ظلام الليل، ودارت بينهما أحاديث خطيرة. ويستأذن كامل الشناوي من رئيس الوزراء ويخرج مسرعًا إلى الأهرام ... إلى مكتب تقلا باشا.

ويرتاب رئيس التحرير المدرَّب في الخبر، فيرفع سماعة التليفون ليتصل بفندق سميراميس، ثم بجميع الفنادق التي يحتمل أن يأوي إليها وزير خارجية ألمانيا، واتصل بالمطار وبرجال البوليس، وبكل مكان له علاقة بوصول جوبلز. ولكن الجميع يؤكدون أن الخبر كاذب. ويضطرُّ تقلا باشا في الفجر إلى الاتصال بمحمد محمود، وما إن يسمع رئيس الوزراء صوت تقلا باشا حتى ينفجر ضاحكًا، وينهي المحادثة بكلمة لا تزال ترن في أُذن كامل: «عشان كامل يتعلم!»

وفعلًا، تعلَّم كامل الشناوي من يومها أن يكون حذرًا، ولعل الحذر أصبح أبرز صفاته ... بعد الظُّرف.

وتمضي الأيام بكامل الشناوي إلى الأمام، وهو يتنقل من نصرٍ إلى نصر، وشهرته تُطبِّق الآفاق، وصيته يدوي كالطبل، والمال ينهال عليه كما تنهال المياه من جوف القِرَب، ويتبخَّر من بين أصابعه بأسرع مما يأتي، وهو يحب المال ويطلبه ويسعى في سبيله، ولكنه يحبه — كما يقول أوسكار وايلد —كالجنتلمان، يحبه لينفقه، ويقبض عليه ليتركه يسيل من بين أصابعه!

يلتقي كامل بوجوه كثيرة، وأصناف شتَّى من الناس وأنواع مختلفة من النفوس، وألوان لا حصر لها، عباقرة وأغبياء، وزراء وصعاليك، فنانون وأدعياء، أصحاب مواهب، وأصحاب سُلطة، أصدقاء وأعداء، وكامل الشناوي يتفرَّج ويتأمل ويضحك، ولكنه أبدًا ... صديق للجميع.

ولكن، كيف يجد القدرة في نفسه على أن يظل صديقًا للجميع، وهو الفنان الذي ينفعل ويضطرب ويتألَّم ويصرخ أحيانًا في شِعره وفي فنه صراخًا رهيبًا عنيفًا، سيظل يُدوِّي أبد الدهر في سمْع الوجود.

لا أحد يدري؟

أنا نفسي سألته هذا السؤال، ولكن بطريقة أخرى: كيف تستطيع أن تنافق كل هؤلاء الناس؟

ويبدو أن السؤال كان قاسيًا على قلب الشيخ الذي بلغ الخمسين، فقال وهو يكبت في نفسه غضبًا ثائرًا: تعودتُ أن أجامل الناس، وما تسميه أنت نفاقًا، أُسميه أنا مجاملة.

وفي سبيل هذه المجاملة ترزَح نفس كامل الشناوي تحت أثقالٍ من العذاب!

أبرز صفاته

ومن أبرز صفاته أنه يستطيع أن يشم رائحة موهبةٍ على بُعد ألف ميل، وهو لا يشمها فقط، ولكنه يسعى إليها، ويجذبها نحوه، ويُجاهد في سبيل أن يدفع بها خطوات واسعة إلى الأمام ... وإذا كان مكتب الشناوي صالونًا يلتقي فيه كل مساء رجالُ الأدب ورجال الفكر، ورجال الفن، ورجال العلم، ورجالٌ فقط، وأشباه رجال؛ فباب كامل الشناوي طريق للمواهب الصغيرة إلى المجد والشهرة ... وإذا كان وراء كل عظيم امرأة، فوراء كل فنانٍ شاب ... كامل الشناوي، وراء الأدعياء أيضًا، وراءهم بلسانه ونكاته وقفشاته.

ولقد ذكرت من قبل أن كامل الشناوي اختار لنفسه طريقًا وسَطًا في الحياة ... ينشد العدل ويدافع في سبيله، ولكنه نصف دفاع ... ويناضل من أجل الحرية ... ولكن

نصف نضال ... ومن أجل هذا أيضًا خاض كامل الشناوي غِمار كل المعارك التي خاضها الشعب، ولكنه لم يدخل السجن أبدًا، فقد كان يخوض المعارك عندما يكون الجو مناسبًا للقِتال، حتى إذا هبت العاصفة آثر كامل أن ينحني لها حتى تَمُر، فإذا انقضت عاد كامل مرة أخرى إلى النضال.

ولعل هذا راجع إلى ذكاء كامل الشناوي، وهو ذكاء من فصيلة «الذكاء العام» للشعب.

لقد خاض الشعب المصري عبر تاريخه الطويل آلاف المعارك، وشهد عشرات الغزوات والمحتلين، ولم يلِن الشعب ولم يستكِن، ولم يهدأ، بل ظل يقاوم ويناضل، وذهب كل الغُزاة، وكل الطغاة، وبقي الشعب ... ذلك لأنه آثر ألا يدخل معركة حاسمة مع أعدائه قد تنتهي بإبادته.

عاشق الليل

وكما يعشق كامل الشناوي الأدب والفن، فإنه يعشق الليل، الحياة عنده تبدأ عندما يبدأ الظلام، ولا يأوي كامل إلى فراشه إلا عند الفجر، ومن المؤكد أنه يكره الوحدة، ولديه قدرة عجيبة على العمل وسط مائة إنسان، وفي جوٍّ صاخب عاصف، وهو يبدو دائمًا هاربًا من شيء في نفسه، وطاقته المبدعة يفرزها قليلًا في الكتابة، وكثيرًا في الكلام ... إنه يعشق الكلام أيضًا ... وهو أسعد ما يكون عندما يتكلم في الأدب، وأنت تحسُّ عندما تسمع كامل ينشد الشِّعر ... إنه يضيف إلى القصيدة معانيَ جديدة لم تكن تحس بها من قبل.

ولكن هذا الوَلَع الشديد بحب الكلام، والذي أمتع الآلاف وأسعدهم، قضى على كامل الشناوي كأديب؛ إذ إنه لم ينتج أدبًا على ورق، وكل روائع كامل وآثاره الخالدة كانت طلقات في الهواء.

وأعجب ما في كامل أنه، وهو الذي يُقدِّر النكتة ويعشقها ويضعها أحيانًا فوق كل اعتبار، يفزع من النكتة ويرهبها إذا كانت مصوَّبة إليه، صحيح أنه يحب النكتة، ويطرَب لها، ويضحك من أعماقه عليها، على شرط أن يكون هو قائلها، وفي جلسة مريحة، وبين أصدقاء أعزاء؛ ولكنه يخاصم النكتة ويكرهها إذا كانت ضده، إذا كانت تعنيه ... إن موقفه منها كموقفه من المعارك، يخوضها إذا كانت لا تقضي عليه.

ومهما يكن الأمر، فقد ذاق كامل الشناوي كل ألوان الحياة؛ ذاق خيبة الأمل، وذاق الفشل، وتجرَّع النجاح ووصل إلى القمة، وربح الألوف، وعاش كالمِهْراجات، وأنفق كل

ما ربح، وعرف عشرات الألوف من الناس، وأَحَب وتألَّم، وشَعر بالرضا، وشَعر بالسخط، وكان دائمًا ثائرًا على كل شيء، حتى على نفسه ... ولكنه استطاع ببراعة وبذكاء أن يسير على حبل الحياة دون أن يسقط ... وعاش حياته كما اشتهى أن تكون حياته، واختلفت صورته عند الناس، فمنهم مَن يعدُّه مازحًا، ومنهم مَن يعتبره فنانًا، وهو عند البعض أديبٌ، وعند الآخرين صحفي، ولكني أعتقد أنه كل هذه الأشياء، وأنه إنسان، وإنسان فريد من نوعه، جمع في نفسه وبين جوانحه كل ما في الحياة العريضة المتلاطِمة، من متناقضات، وببساطة، إنني أعتقد أن كامل الشناوي هو ... الحياة.

وليعذِرْني القارئ إذا ضربت صفحًا من نكات كامل الشناوي وقفشاته، فهي شائعةٌ ذائعة على كل لسان. وليعذِرني كامل الشناوي نفسه إذا كنت قد أخطأت، وهذا الذي كتبته ليس تاريخًا لحياة كامل الشناوي، وإلا لكنت احتجت إلى مجلد ضخم، قد تنتهي صفحاته قبل أن ينتهي الحديث عن كامل الشناوي، ولكنه مجرد انفعال شخصي بأستاذ زاملته حينًا، وصاحبته حينًا، واتفقت معه حينًا، ولكنني أحببته على الدوام.

أمتع هواياته

وبعد، إن قصة الصبيُّ المعمم الصغير الذي خرج من السيدة زينب، وهرب من الأزهر، ليتربَّع على رأس المجتمع، ويشترك في توجيهه وصياغة مصيره لفترة طويلة من الزمان، قصة هذا الصبي لم تنتهِ بعد، وأغلب الظن أنها لن تنتهي أبدًا ... فلقد أثر كامل الشناوي في عصره كما تأثر به، وأثر في العشرات الذين تتلمذوا عليه، والذين أُعجبوا به، والذين شغفوا بفنِّه ... وسيظل كامل الشناوي طرازًا فريدًا بين أدباء العصر، وسيظل بابًا لكل الموهوبين من الشباب إلى الجنة، وستبقى حياته ... أعظم إنتاجه، كما كانت الحياة عنده ... أمتع هواية لديه.

ليس بعد الضحك ذنبٌ!

«إذا كان ليس بعد الكفر ذنبٌ، فليس بعد الضحك شيء أكثر فائدةً للإنسان.»

إذا كان ليس بعد الكفر ذنب، فليس بعد الضحك شيء أكثر فائدةً للإنسان. بشرط أن يكون الضحك بواسطة ... فن عظيم! والشعب المصري شعبٌ ضاحك بطبعه، علَّمَته سنوات الذل والعدوان أن يُسَلي همَّه بالنكت والتأليس والضحك على الفاضي والمليان! ولذلك كان من الصعب أن تكون ساخرًا في مصر؛ إذ كيف يستطيع فرد واحد أن يُضحك شعبًا من الساخرين العِظام! والنكتة المصرية مثل الطرشي والليمون المعصفَر والطافيا ... معتَّقة وحراقة وكاوية، تنطلق أحيانًا كالرصاصة تندب في الضلوع!

وأول نُكَتيٍّ شهير في مصر كان يعيش في عهد كافور الإخشيدي، وكان اسمه سِيبَوَيْه المصري؛ وذلك لغرامه الشديد بالفُصحى، وتعلقه الشديد بالصرف والنحو والإعراب، وكان سيبويه يركب حمارةً بيضاء اللون ويمشي في الأسواق هاجيًا أعداءه ومنافسيه بأفحش الألفاظ، وعندما سُئل لماذا تركب حمارة، قال: لأن عندي في البيت حمارة تركبني!

ولقد جاء المتنبي إلى مصر فحمَل عليه سِيبَويه المصري حملةً شَعْواء، وكان من الأسباب الرئيسية التي نفرت المتنبي من مصر ومن أهل مصر، وجعله يهجوهم ويهجوها بشِعره الرائع العظيم.

الشعر الحَلَمَنْتِيشي!

ولقد ظهر في مصر بعد ذلك بنصف قرنٍ فقط عشرات ومئات مثل سيبويه المصري، ولكن على نحو آخر، شعراء عقلاء وعلماء، تحولوا فجأة إلى مجانين يقولون أشعارًا ولا لَخْبَطة البغبغان، أولهم أبو الرقعمع، وابن مكنسة، وابن دانيال، ولقد استمر هذا الشِّعر وتطوَّر،

وأطلقوا عليه في العصر الحديث اسم الشِّعر «الحَلَمَنْتِيشي»، ونبغ فيه عباقرة أفذاذ كان من بينهم حسين شفيق المصري، ومحمد مصطفى حمام. وقد ترك حسين شفيق المصري ثروة هائلة من الشِّعر الحلمنتيشي كان أعظمها «المَشْعْلَقات السبع» على وزن المعلقات السبع، التي تركها فطاحل الشعراء العرب مُعلقةً بخيوط من ذهب على أستار الكعبة!

ولقد حرصتُ على تدوين نصِّ المَشْعْلقة في الجزء الخاص بشفيق المصري، وذلك لكي يقف القارئ على مدى الجهد الذي بذله الشاعر الحلمنتيشي في كتابة هذه المَشْعْلقة، ذلك أن بعض الموهومين يظنون أن الشِّعر الحلمنتيشي سهل! وأنه يكفي أن تقول أي كلام فارغ وهايف لتصبح من الشعراء الحلمنتيشيين!

ولكن الغريب في الأمر حقًّا أن يكون الشعب المصري هو الشعب الوحيد في العالم الذي يفرز شعراء من هذا النوع … وأن تكون مصر هي البلد الوحيد في العالم الذي يقول شعراؤه شِعرًا من هذا اللون!

ومن الإنصاف أن أقول أن هذا الشِّعر الحلمنتيشي لم يزدهر ولم يصبح أدبًا محترمًا إلا في مطلع القرن العشرين؛ حيث كان وسيلة للنقد وسلاحًا في معركة التَّريَقة على أوضاع الحكم. وصرخة احتجاج ضد الأوضاع المقلوبة في الحياة.

والواقع أن النكتة المصرية والفكاهة عمومًا لم يصبح لها وضع مرموق إلا في العصر الحديث. ذلك أن الرجل الفكهي كان لا يعدو مجردَ مهرجٍ، أو أراجوز، أو طالب قُوتٍ في نظر الآخرين، وإن كان الإنصاف أيضًا يقتضينا أن نقول إن السواد الأعظم من الناس الفكهية كانوا في الواقع أرزقية وطلاب قوت.

والسبب أنه في مطلع هذا القرن اقتحم سوق الفكاهة عددٌ من الوجهاء وكبار الموظفين ومشاهير الأدباء، من بينهم الدكتور بكير الحكيم، ورشاد بك القاضي، والدكتور محمد رأفت، وحسن بك رضا المحامي، ومحمد بك المويلحي، ومحمد بك البابلي، ونعمان باشا الأعصر، وخليل بك خير الدين، وحافظ بك إبراهيم، وساويرس بك ميخائيل، ولم يمارس هؤلاء الناس الصنعة لإضحاك الناس، بل للضحك عليهم.

وقبل أن يدخل السوق هؤلاء الأعلام، كانت الفكاهة مجرد «قفش» ومهرجان للقافية. وهذا النوع من الفكاهة لا يحتاج إلى ذكاء كثير، بل يحتاج إلى براعة في التلفيق، وهو لا يحتاج إلى سرعة خاطر؛ لأن أغلبه محفوظ ومكرر ومُعاد، ويقال في كل مقام. فإذا كانت قافية السيارات مثلًا يقال: وِشَّك من الضرب.

– اشمعنى؟

– كبر ليه.

ويقال أيضًا: لما تخش بيتكو.

– اشمعنى؟

– يبقى فيه تيس.

ولاحظ التلفيق الذي بين كابورليه، وكبر ليه، وكذلك بين فِتيس السيارة، وفيه تيس، التي يقصدها الفنان المشترك في القافية.

ولقد برز في هذا اللون من الفن عشرات وألوف، ولكن أبرزهم على الإطلاق كان إمام العبد، ثم يأتي حسين الفار، وسلطان الجزار.

ولكن هؤلاء البهوات المتفرغين للنكتة، طوَّروا القافية إلى شيء آخر رفيع.

ولقد شارك البابلي مشاركةً فعالة في تطوير النكتة المصرية وتهذيبها، حتى ليجعل السامع يموت من الضحك بعباراتٍ أرقَّ من النسيم، وهو في هذا بعكس بيرم التونسي، الذي يُضحك بكلام صريح وعبارات صريحة ومعنى أكثر صراحة.

يقول بيرم التونسي:

في الأربعة دول فِقي عاجز نظر وخبيث
قاعد مقرفص وفاتح جبته لإبليس؛
لأنه عارف بقى المنزل ما فيهش أنيس،
غير المرة، والمشايخ كلهم عميان.
كحت وقالت لسيدنا صاحب العِمة:
تعرفش تقرا لي عِدِّيَّة يس كاملة،
الليلة حالًا وتقلبها على كاملة
بنت أم غانم، وعيشة بنت خضرة كمان؟
قال الفِقي: كل شيء حاضر وأنا خدَّام،
لكن مفيش وقت، ياللا استعجلي لنا قوام،
واعطي المشايخ حسابهم يذهبوا بسلام،
وأنا أبات لك بعِدِّيَّة يس سهران.

والمعنى هنا واضح وصريح، لا لف فيه ولا دوران.

وكان المعلم دبشة الجزار من أعلام القافية أيضًا، ولكن أكثر ما قاله لم يُدوَّن، ولكن من القليل الباقي له عبارات تدُل على ذكاء حاد وسرعة بديهة ليس لها مثيل.

ويُعتبَر مأمون الشناوي هو التطور الجديد لهذا الاتجاه، نكتته مزيج من القافية والنكتة، علَّق على اطِّراد الزيادة في وزن حمادة الطرابلسي، فقال: «أنا كنت قاعد وشفته وهو بيتخن.»

وكان يركب سيارة مع صديق فقال لصحاب السيارة: ما تحاسب شوية.

فقال الصديق: أصل الشارع كله مَطَبَّات.

وقال مأمون: مش معقول المطبات دي كلها في الشارع، دا لازم مطب لزق في العَجَلة.

وكان يركب سيارة قديمة جدًّا وقذرة جدًّا، فقال للسائق: ابقى اغسل الإزاز بتاع العربية.

فقال السائق: دا مفيش إزاز يا بيه، دا الإزاز مكسور.

فقال مأمون: طيب ابقى اغسل الهوا.

ولكن كامل الشناوي كان على عكس هؤلاء، كانت النكتة عنده قصة قصيرة وصورة فنية. وهذا النوع من النكت نبغ فيه عشرات من الناس، ولكنهم جميعًا تلاميذ في مدرسة كامل الشناوي، ومن هؤلاء عبد الحميد قطامش المحامي، وعباس الأسواني، وزكريا الحِجَّاوي.

وإن كان زكريا الحجاوي أكثرهم براعةً؛ عندما يتكلم، فإذا كَتَب تحوَّل إلى إنسان آخر متجهِّم شديد الكآبة ... كأنه مستودع أحزان!

والحقيقة أنه ليس كل مَن يقول النكتة يجيدها في الكتابة. فقد كان البابلي من أبناء النكتة العظام، ولكنه لم يكتب شيئًا، وعبد الحميد قطامش كلامه يقطُر سخرية وضحكًا، ولكنه حين يكتب شيئًا لا وصف له على الإطلاق، ولو أن عباس الأسواني استطاع أن يكتب كما يتكلم لأصبح لدينا أديبٌ ليس له نظير على طول الزمان.

ومن هذا الطراز أيضًا كان الشيخ عبد العزيز البِشري، فقد كان تمسُّكه باللغة العربية الفصحى الحقَّة، هو الحائل بينه وبين اكتشاف روحه الحقَّة كأديب. وأعظم آثاره في النكتة هي التي تركها شفاهة.

دخل مرَّة على حافظ إبراهيم وكانا في طريقهما إلى رحلة، فاستمهله حافظ إبراهيم حتى يغسل وجهه، فقال له البشري: وشك مش عاوز غسيل، نفَّضه كفاية.

وكان الشيخ البشري في مأدبة عند الأباظِيَّة، وحين عاد بعد أن غسل يديه اكتشف أن أحدهم قد رسم وجهًا لحمار على الجبة فقال البشري: مين فيكم اللي مَسَح وِشه في الجبة؟!

ويشكو لطبيبه من ألم في المُصران الأعور، ويشير له إلى مكان الألم، فيطمئنه الصديق بأن المصران الأعور في الجهة اليُمنى، والألم الذي يعانيه في الناحية الشمال، فقال البشري: طيب ما يمكن أن أعور شِمال.

ولكن الشيء الذي تطور حقًّا هو فن الكتابة الضاحكة.

ولقد كانت كتابات البِشري هي أعظم المحاولات في هذا الطريق، وكذلك استطاع بيرم التونسي وحسين شفيق المصري أن يضيفا أشياء كثيرة إلى فن البشري، والسبب هو قدرتهما الفائقة على استعمال العامية، وثقافتهما العريقة في التراث.

وكانت مجلة البَعكُوكة إضافة جديدة مستقِرَّة؛ لأن كل المحاولات السابقة لم يتوافر لها الاستمرار؛ كالسيف والمسامير والشجاعة والخلاعة. وحتى الكشكول أيضًا لم يُكتب لها البقاء. ولو لم ينضم صاحب البعكوكة إلى قلم الاستعلامات البريطاني، ولو لم يُكرِّس جهوده للحرب ضد بيرم التونسي، ولو لم يبذل جهدًا فائقًا لنفاق الملك وبطانته؛ لولا هذا لكانت مجلة البعكوكة هي خير ما نعتز به في هذا المجال. ذلك أن الفكاهة لا يمكن أن تدوم طويلًا إذا كانت حربًا ضد المبادئ، أو إذا استُخدمت ضد الشعب.

ثم جاءت بعد ذلك مجلة كلمة ونص وكانت إضافة جديدة بعد البَعكوكة.

وتُعتبر مجلة صباح الخير هي آخر فوج هذا الطابور. ولكن ينبغي لنا الوقوف لحظة عند مجلة الفُكاهة التي أصدرتها «دار الهلال»، والتي كان يحررها حسين شفيق المصري ووليم باسيلي.

فلقد كان العيب الحقيقي في هذه المجلة هو الوقوف في الوسط بين الطغاة والمحكومين، وبين الاستعمار والشعب، الظالمين والمظلومين، فكانت الفكاهة فيها للفكاهة؛ ولذلك لم تصمد طويلًا، واضطُرَّت دار الهلال إلى دَمجها في مجلة «الاثنين والفكاهة»، ولعلَّ هذا هو عيب وليم باسيلي أيضًا، فلو أنه اتَّخذ لنفسه موقفًا محددًا فلربما كان له الآن شأن آخر. ولكنه آثر الحياد في المعركة، لذلك كانت فكاهته فاترة باردة لا تنفذ حتى العظم.

والفكهي الحق ينبغي أن يكون ممرورًا غاية المرارة، وإلا فإن فكاهته تصبح ضربًا من اللهو.

ومن كُتَّاب الفكاهة العظام يحيى حَقِّي، ولكنه آثر السكوت، لا أدري كيف؟ وجليل البنداري أيضًا كاتبٌ فكهي جيد، ولكنه عندما يتكلم يتحوَّل إلى شتَّام. وصلاح جاهين كاتب فكهي ممتاز، ولكنه عندما يتكلم لا تسمع أي شيء، وأحمد رجب يَعيبه أنه وقع في نفس الخطأ الذي وقع فيه وليم باسيلي من قبل، ومحمد عفيفي كاتب فكهي جيد، ولكنه

يبدو في كتاباته مُتأثرًا بالغرب أكثر من تأثره بالتراث. ولكن كل هؤلاء على مستوًى أعظم بكثير مما كان عليه الذين سبقونا إلى رحمة الله.

ابن سَودُون

ولعلَّ من غريب الأمور أن الكتابة الفكاهية منذ ٥٠٠ سنة كانت أحسن منها في أوائل هذا القرن. فقد كتب ابن سودون المصري أشياء رائدة وبسيطة تصلح للنشر هذه الأيام ... كتب مرَّة خطابًا إلى أبيه في الصعيد:

«ويا والدنا العزيز، أُعرفك أنني نجوت من خطر خطير وشرٍّ مستطير، فقد غسلت الجبَّة ونشرتها على حبل الغسيل، كانت الليلة قمرها غائبٌ وبردها أثيل؛ ولذا تعكر الجو فجأة، وهبت ريح عاتية، من جهة الشَّمال آتية، وإذا بالجبة تطير، وعلى الأرض تستقر، فوالله يا والدي، لو كنت أنا في الجبة ساعة هذا الحادث الخطير، لكنت مت في الحال، وأصبحت جثتي كالفَطير ... ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي القدير.»

هذه عينة من كلام ابن سودون.
وإليك عينة أخرى من كلام البشري:

«ولقد كان حافظ إبراهيم يعرف عني شدة الخوف، مثلًا من سرعة السيارات، يستدرجني إلى إحداهن لنزهة أو لغدوة، ولا أركب حتى استوثق من أن السائق لا يُسرع، وإذا هو قد أوصاه، وربما رشاه، فما يكاد الخنزير يبدأ عمل السيارة، حتى يجريها في سرعة الكوكب الهادي والبرق الخاطف، ما يُبالي زحمة الطريق، ولا مواجهة التِّرام، ولا يطامن منه أنه يرقى قلعة، أو مشت على حافة ترعة، أو نحو هذا مما يغلب توقع التلف منه على توقع السلامة!»

من هذه المقارنة نجد أن كفَّة ابن سودون أرجح، فإذا قارنَّا الاثنين بأي كاتب ساخر جديد وجدنا أن النتيجة في جانب الجديد.

وأعتقد أن بمصر عددًا من الكُتَّاب الضاحكين أضعاف أضعاف ما هو موجود في أي بلد آخر.

وفي ألمانيا الغربية مثلًا يدفعون ثلاثة أضعاف الأجر المحدَّد لَمن يكتب برنامجًا يُضحك المشاهدين.

وفي ألمانيا الشرقية دور النشر تُترجم كل الكتب الساخرة التي تصدر في أنحاء العالم ... لأنه لا يوجد كاتب واحد ساخر في ألمانيا كلها ... غربها وشرقها.

ولعل كُتَّابنا المسرحيين جميعًا من الكتَّاب الفُكاهيين.

وأعظمهم في هذا المجال بلا شك نعمان عاشور، ويأتي بعده سعد وهبة، ثم ألفِريد فرج.

ولعلَّ مصر أيضًا هي البلد الوحيد الذي يتمتع بهذا العدد الوفير من رسَّامي الكاريكاتير. ذلك أن الرسَّام الكاريكاتير هو كاتب ساخر؛ لأن الكتابة الساخرة، هي الأخرى، نوع من الكاريكاتير.

فإذا استثنينا من رسَّامي الكاريكاتير صاروخان، وطوغان، وعبد السميع، باعتبارهم رسَّامي سياسة وأحداث ومواقف درامية، لو استثنينا هؤلاء لوجدنا عشرات من الرسَّامين الفُكَهيين، أعظمهم بلا جدال: رخا، وصلاح جاهين، وبهجت، وحجازي، وإيهاب، وجورج، وطوغان، والمُضحِك العام مصطفى حسين.

هنـــداوي